روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

العين الثالثة

٤٤

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رجل المستحيل ● العين الثالثة ٤٤ ● المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة

المؤلف



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة



الثمن فى مصر

وما يعادل دولارا أمريكيا فى سائر الدول العربية والعالم

العين الثالثة

- تُرى .. ماذا تعنى كلمة (عين) فى لغة المخابرات ؟
- ما سرّ انتقال (أدهم) و (منى) إلى ثلوج روسيا القاسية ؟
- تُرى .. أينجح (أدهم صبرى) فى إقتناص (العين الثالثة) ، أم تنتهى مغامراته وسط الثلوج ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة .. لترى كيف يعمل (رجل المستحيل) .



العدد القادم : القضبان الجليدية

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

١ ــ إلى الشروق ..

لمع البريق فى سماء مصر ، التى تلبَّدت بالغيوم ، وانهمرت منها الأمطار فى الأسبوع الأخير من ديسمبر ، خلال واحدة من أشد الموجات الباردة ، التى هبَّت رياحها على جمهورية مصر العربية ..

ووسط الأمطار الباردة ، المنهمرة كالسيول ، عَبرت سيارة (أدهم صبرى) ، و (منى توفيق) بوابة مبنى المخابرات العامة المصرية ، وقالت (منى) فى ضيق ، وهى تضم أطراف معطفها الثقيل ، لتؤمِّن بعض الدفء لجسدها الضئيل :

ــ يا له من يوم !! لولا استدعاء سيادة المدير لنا ، ما فكَّرت فى مغادرة فراشى قط .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

ــ تذكَّرى يا عزيزتى أن المدير أيضًا قد غادر فراشه إلى هنا ، فى الجوّ نفسه .

غمغمت فى حَنَق :

ـــ نعم .. فى سيارة مكيَّفة الهواء ، وإلى مكتب مماثل .

ضحك (أدهم) وهو يوقف سيارته ، ويهبط منها بصحبة (منى) ، وأسرع الاثنان إلى داخل مبنى المخابرات ، وصعدا درجات السُّلَّم إلى حجرة مدير المخابرات المصرية ، الذى استقبلهما فى اهتمام ، مع نائبه الجديد ، الذى صافح (أدهم) فى حرارة ، وقال :

ـــ أنت إذن (ن ـــ ١) ، الذى يطلقون عليه اسم (رجل المستحيل) .

ابتسم (أدهم) ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـــ أعتقد ذلك يا سيِّدى .

انتزعهما مدير المخابرات من حديثهما ، قائلًا فى اهتمام :

ـــ هل علمت بقصة شبكة الجاسوسية ، التى تم ضبطها بمصر فى الأسبوع الماضى يا (ن ـــ ١) ؟

أجابه (أدهم) باهتمام مماثل ، وهو ينزع معطفه الثقيل :

ـــ لقد ألقت المباحث العامة القبض على جاسوسين إ ســ ....

قاطعه مدير المخابرات فى جدِّيَّة :

ـــ ولقد فرَّ الثالث ، قبل أن يتم كشف الشبكة بأكملها ، وهو أخطر أفرادها ، أو بمعنى أدق هو زعيمها .

هتف (أدهم) و (منى) فى آن واحد :

ـــ فرَّ ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا فى ضيق ، وقال :

ـــ لقد فرَّ بجواز سفر مزوَّر ، على أول طائرة غادرت القاهرة ، قبيل لحظات من الإيقاع بالشبكة .

سأله (أدهم) فى قلق :

ـــ هل يحمل معه بعض المعلومات السِّرِّيَّة ؟

هزَّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ لا .. ولكن الأمر أخطر من ذلك بكثير .

ثم التفت إلى (منى) ، وقال :

ـــ أعتقد أن معطفك الثقيل لا يناسب جو الحجرة الدافئ أيَّتها النقيب .

انتبهت (منى) إلى أنها لا تزال ترتدى معطف المطر الثقيل ، فأسرعت تنزعه وهى تغمغم :

ـــ معذرة يا سيِّدى ، ولكن الجوّ بالخارج شديد البرودة و ....

قاطعها (أدهم) ، وهو يسأل مدير المخابرات فى اهتمام :

ـــ أين تكمن الخطورة يا سيِّدى ؟

أشار مدير المخابرات إلى نائبه الجديد ، وقال :

ـــ سيشرح لكما العميد (شوقى) تفاصيل الأمر ، فهو الذى ألقى القبض على الشبكة كلها ، فى أثناء رئاسته للمباحث العامة ، وقبل انتقاله للعمل بيننا هذا الصباح .

التفتت عينا (أدهم) و (منى) إلى العميد (شوقى) ، الذى تنحنح ، وقال :

ـــ أنتما تعلمان أن كلمة جاسوس تطلق دائمًا على العميل الذى ينقل أسرار بلده إلى بلد عدوّ ، أما العميل الأجنبى ، الذى يبحث عن معلومات ، فنطلق عليه اسم (عين) .. وتلك الشبكة التى ألقينا القبض عليها كانت تتكوَّن من ثلاث عيون ، وسبعة جواسيس .. ولقد قادتنا تحرِّياتنا إلى كشف الشبكة بأكملها ، وأعددنا بالفعل خُطَّة ماهرة ، لإلقاء القبض على أفرادها جميعًا فى لحظة واحدة .. وفى أثناء تنفيذ الخُطَّة سقط عينان والجواسيس السبعة ، واختفت (العين الثالثة) تمامًا .

غمغمت (منى) :

ـــ العين الثالثة ؟!

تمتم مدير المخابرات ، وهو يلوِّح بكفِّه فى ضجر :

ـــ هذا هو الاسم الكودى لتلك المهمة .

ابتسم العميد (شوقى) ، ثم عاد يستطرد :

ـــ لقد كان (العين الثالثة) يعمل هنا ، فى أحد البنوك الأجنبية ، تحت اسم (أندريه جريج) .. ولقد غادر القاهرة فجأة .. بجواز سفر مزوَّر ، إلى منطقة عمله الأصلية ، قبل إلقاء القبض على الشبكة بساعة واحدة

غمغم (أدهم) ، وكأنه يتساءل عن بعض التفاصيل :

ـــ منطقة عمله الأصلية ؟!

ظهر شبح ابتسامة على شفتى العميد (شوقى) ، وهو يقول :

ـــ يبدو أن هذا يحتاج إلى مزيد من التفاصيل .

ثم اعتدل مستطردًا فى لهجة قوية :

ـــ لم تكن هذه الشبكة تتبع (الموساد) كما تصوَّر البعض ، ولكنها تتبع أشهر منظمة عالمية للتجسُّس التجارى .

وأردف فى بطء :

ـــ منظمة (سكوربيون) .

أطلقت (منى) صيحة دهشة ، على حين رفع (أدهم) حاجبيه ، وعاد يخفضهما وهو يبتسم فى سخرية ، ويغمغم :

ـــ خصومنا القدامى إذن !

ابتسم مدير المخابرات ، وقال :

ـــ أنت خصمهم اللدود يا (ن ـــ ١) ، لقد حطمت غطرستهم أكثر من مرّة .

هتف العميد (شوقى) فى حرارة :

ـــ لقد قرأت الملفات السرّيّة الخاصة بذلك ، ولقد كنت رائعًا يا (ن ـــ ١) .

ابتسم (أدهم) وقال :

ـــ شكرًا يا سيِّدى .

ثم عادت ملامحه إلى جدِّيتها ، وهو يردف :

ـــ ولكننى لم أعرف بعد مدى الخطورة فى هروب هذا الرجل .

قال العميد (شوقى) :

ـــ تكمن الخطورة فى أنه الرجل الوحيد ، الذى يعلم كل شىء عن الشبكة ، وعن أفرادها الذين ربما لم نتوصَّل إليهم يا (ن ـــ ١) ؛ لذا فنحن فى أشد الحاجة إلى استعادته .

عقد (أدهم) حاجبيه ، وغمغم :

ـــ استعادته ؟!

أومأ العميد (شوقى) برأسه ، وقال :

ـــ نعم يا (ن ـــ ١) .. إعادته إلى القاهرة ، وبحالة تسمح باستجوابه ، وإلَّا ظللنا نخشى وجود فرع آخر للشبكة طوال الوقت .

ساد الصمت لحظة ، ثم قالت (منى) :

ـــ هل لدينا مزيد من المعلومات عنه يا سيِّدى ؟

قال العميد (شوقى) :

ـــ نعم أيَّتها النقيب .. إنه يرأس إحدى الشركات الخاصة ، التى نشأت مؤخرًا بعد اتفاقية الوفاق الأخيرة ، و ....

قاطعته (منى) ، وهى تهتف فى دهشة :

ـــ اتفاقية الوفاق ؟!

ابتسم مدير المخابرات ، وقال :

ـــ هذا هو أصعب جزء فى المهمة فى الواقع أيَّتها النقيب ، ولقد ادخرناه إلى النهاية .

التقط العميد (شوقى) طرف الحديث ، وابتسم فيما يشبه الاعتذار ، وهو يقول :

ـــ نعم أيها السادة ، إن مهمتكما هى القبض على (أندريه جريج) وإحضاره حيًّا معافى من ....

صمت لحظة ، ثم أردف فى بطء :

ـ من (موسكو) .

أطلق (أدهم) صفيرًا طويلًا من بين شفتيه ، على حين قفزت إلى رأس (منى) صورة قاتمة لثلوج لا نهاية لها ، وانتابتها رجفة وهى تهتف :

ـ يا إلٰهى !! (موسكو) ؟. فى مثل هذا الوقت من السنة ؟

ضحك مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ نعم أيّتها النقيب ، ستذهبان إلى (موسكو) رأسًا .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول فى هدوء :

ـ الذهاب لا يقلقنى يا سيّدى ، ولكنها العودة ..

ثم اتسعت ابتسامته ، وشملتها بعض السخرية ، وهو يردف فى هدوء شديد :

ـ وحرصًا على أموال المخابرات ، أقترح أن أحصل وزميلتى على تذكرة بلا عودة .. إلى (موسكو) .

* * *

٢ ـ بلا عـــودة ..

ـ ثلاثون تحت الصفر ؟!.. يا إلٰهى !! وأنا التى كنت أرتجف بردًا فى مصر .

هتفت (منى) بهذه العبارة فى سخط ، وهى تتطلّع من نافذة الفندق الضخم ، إلى الثلوج الكثيفة ، التى تغطّى كل شبر من مدينة (موسكو) ، وأطلق (أدهم) ضحكة خافتة ، ثم أشار بسبّابته ، قائلًا :

ـ حذار يا عزيزتى ، فالسوفييت لن يعجبهم سخطك على طقسهم .

زفرت (منى) فى ضيق ، وقالت :

ـ وماذا يعنيهم من سخطى على طقسهم ؟.. وماذا لو علموا طبيعة مهمتنا ؟ و ....

قفز (أدهم) فجأة ، وأحاط فمها بكفه ؛ ليمنعها من مواصلة الحديث ، ثم قال فى لهجة بدت لها شديدة المرح :

ـ هل سنقضى وقتنا كله فى الفندق يا عزيزتى ؟.. دعينا لمشاهدة استعدادات عيد الميلاد فى (موسكو) .

تطلعت إليه (منى) فى دهشة ، وغمغمت فى استسلام :

ــ حسنًا .. هيًّا بنا .

* * *

ارتجفت (منى) وهى تسير إلى جوار (أدهم) ، وسط ثلوج (موسكو) الكثيفة ، على الرغم من معطفها الفراء الثقيل ، الذى تتدثر به ، وغمغمت فى حَنَق :

ــ أهذا وقت الخروج إلى الطريق ؟ إن أنفاسى تتجمَّد قبل أن تغادر شفتىّ .

ابتسم (أدهم) ، وقال :

ــ كان لابدَّ لنا من ذلك ، قبل أن تشرحى خُطَّتنا كلها للسوفيت يا عزيزتى .

توقَّفت (منى) بغتة ، وسألته فى حنق :

ــ هل لك أن تشرح لى معنى ذلك ؟

جذبها من معصمها ، ليحضها على مواصلة السير ، وهو يقول ضاحكًا :

ــ لا تتوقفى يا عزيزتى ، وإلّا تجمَّدت بردًا .

ثم أردف فى جِدِّيَة :

ــ لا تجعلى سياسة الوفاق تخدعك يا عزيزتى .. صحيح أن

الاتحاد السوفيتى يتظاهر اليوم باتخاذ سياسة أكثر انفتاحًا ، ليبرهن على حسن نواياه تجاه الغرب ، ولكن هذا مجرَّد إطار خارجى ، أما الصورة نفسها ، فلم تتبدل مطلقًا .

سألته فى اهتمام :

ــ ماذا تعنى ؟

ابتسم وهو يقول :

ــ هل تذكرين مهمتنا السابقة فى موسكو ؟..(*) إننا لم نستطع القدوم ــ حينذاك ــ إلّا من خلال فوج سياحى ، أما الآن فالاتحاد السوفيتى يرحِّب بالسائحين ، ولكنه ما زال يعتبر كلًّا منهم جاسوسًا ، حتى يثبت العكس .. وبناءً على ذلك ، زُوِّدَتْ حجرات الفندق كلها بأجهزة التصنُّت ، كما وضع السوفيت فى كل حجرة خطًّا تليفونيًّا منفصلًا ، حتى يمكن مراقبتها جميعًا .

غمغمت (منى) فى دهشة :

ــ يا إلهى !!.

مطَّ (أدهم) شفتيه ، وقال :

ــ السوفيت أحرار فيما يتعلَّق بوسائل أمنهم يا عزيزتى ،

(*) راجع قصة (الجليد الدامى) .. المغامرة رقم (٥) .

ولا تنسىْ ذلك الصراع المستميت بينهم وبين الغـربْ ، على زعامة العالم ، ثم إنهم فى أعماقهم شعب مكافح صنديد ، وهم فى الواقع يثيرون إعجابى بصلابتهم .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم قالت (منى) :

ـــ ماذا عن (أندريه جريج) ؟

تنهَّد (أدهم) ، وقال :

ـــ إنه يرأس شركة لتوريد القمح إلى الاتحاد السوفيتى ، وهم يعاملونه هنا كأجنبى ، ولكنهم يهادنونه ، ويظهرون له الوُدّ ، نظرًا لخطورة منصبه بالنسبة لاحتياجاتهم إلى القمح .

سألته :

ـــ وكيف نستطيع الحصول عليه ؟

ابتسم (أدهم) ، وقال :

ـــ سندفعه إلى التوسُّل لنا ، أن نصطحبه معنا إلى القاهرة يا عزيزتى .

سألته فى دهشة بالغة :

ـــ كيف ؟

ابتسم فى غموض وهو يقول :

ـــ سترين يا عزيزتى .. سترين .

* * *

اعتدل الرفيق (ياكوف) رئيس قسم مكافحة التجسُّس ، وألقى نظرة فاحصة مدقِّقة ، على الجندى الذى وقف أمامه فى احترام ، مؤدِّيًا التحية العسكرية على نحو مفرط فى التبجيل ، ثم سأله فى هدوء لا يخلو من الحزم :

ـــ ماذا وراءك يا رفيق (كلانوفسكى) ؟

تنحنح (كلانوفسكى) ، وقال :

ـــ لدىَّ رسالة شفهية ، من قسم التصنُّت على الغرباء أيها الرفيق الجنرال .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ـــ إلىَّ بها .

قال (كلانوفسكى) بلهجة آليَّة :

ـــ وصل إلى الفندق الكبير رجل وامرأة مصريان ، ولقد قالت المرأة فى أثناء حديثهما معًا : « ماذا سيفعل السوفيت لو علموا طبيعة مهمتنا ؟ » ، ولكن الرجل قاطعها على نحو مثير للشك ، وهو يقول فى لهجة مرحة : « دَعِينا نخرج لمشاهدة استعدادات أعياد الميلاد يا عزيزتى » .

برقت عينا (ياكوف) ، وظهر الاهتمام واضحًا فى ملامحه ، وهو يقول :

— طبيعة مهمتهما ؟

قال (كلانوفسكى) :

— نعم يا سيِّدى الرفيق .

ساد الصمت لحظة ، ثم افتر ثغر (ياكوف) عن ابتسامة واسعة ، تشبه ابتسامة القط ، حينما يكتشف وجود فريسته على بعد خطوات قليلة منه ، وقال :

— لهما مهمة فى وطننا إذن !!

ثم عاد يعقد حاجبيه ، ويقول وكأنما يحادث نفسه :

— ولكن علاقاتنا بمصر جيِّدة ، وهم لا يعمدون مطلقًا إلى التجسُّس علينا .

عاد الصمت يسود لحظة ، ثم نهض (ياكـــوف) من مقعده ، وعقد كفَّيه خلف ظهره ، وقد شفت ملامحه عن تفكير عميق ، ثم لم يلبث أن قال فى هدوء :

— أحطهما بمزيد من المراقبة يا رفيق (كلانوفسكى) .. وعنـد أول بادرة شك ، سنرسلهمـا فى طرد مضمـــون إلى (سيبيريا) ، كهدية عيد ميلاد .

* * *

٣ — التَّحدِّى ..

رفع (أندريه جريج) عينيه الزرقاوين ، يتأمَّل فى (أدهم) بنظرة فاحصة ، ثم أزاح خصلة نافرة من شعره الأشقر الناعم ، وابتسم ابتسامة واسعة ، وهو يلقى نظرة سريعة على (منى) ، وقال :

— هـل لى أن أتشرَّف بمعـرفة سبب هـــذه الزيـــارة ، يا سيِّد .... ؟

أجاب (أدهم) فى هدوء :

— (أشرف صابر) .. مندوب من وزارة الزراعة المصرية ، وهذه زوجتى السيِّدة (منى توفيق) .

بدت ابتسامة (أندريه) غامضة ، وهو يقول :

— هكذا ؟!.. وماذا تريد منى وزارة الزراعة المصرية يا سيِّد (أشرف) ؟

قال (أدهم) فى هدوء :

— نريد عقد صفقة ، لتوريد عشرة آلاف طن قمح إلى مصر .

رفع (أندريه) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وابتسم فى خبث وهو يقول :

ــ عجبًا !!.. ولماذا لم ترسلك وزارة الزراعة المصرية إلى الشركة الأم فى الولايات المتحدة الأمريكية ؟.. إننى هنا مجرَّد مدير مكتب محدود المسئولية و ....

قاطعه (أدهم) فى هدوء :

ــ ستحصل على عمولتك بالطبع .

تطلَّع إليهما (أندريه) بنظرات باردة ، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة ماكرة ، ومال نحوهما قائلًا :

ــ إنها لا تبدو لى خُطَّة محبوكة يا سيِّد (أدهم) .

رفعت (منى) حاجبيها فى دهشة ، حينما خاطب الرجل (أدهم) باسمه ، ولكن (أدهم) ظلَّ هادئًا ، وهو يقول :

ــ لقد فضَّلت أن أبدأ بها ، بدلًا من كشف الأوراق كلها دفعة واحدة أيها الوغد .

أطلق (أندريه) ضحكة قصيرة ، وقال وهو يشير إلى وجه (أدهم) :

ــ إنك حتى لم تبدِّل ملامحك كعادتك يا سيِّد (أدهم) .. هل نسيت أن كل فرد فى (سكوربيون) يحفظ ملامحك عن ظهر قلب ؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (أدهم) ، وقال :

ــ يبدو أنك لا تخشى أجهزة التصنُّت السوفيتية أيها الوغد .

ضحك (أندريه) فى خبث ، وقال :

ــ لقد أبطلنا مفعولها كلها يا سيِّد (أدهم) .

ثم أردف فى لهجة متفاخرة :

ــ إن (سكوربيون) منظمة قوية ، تمتلك تكنولوجيا متطوِّرة يا سيِّد (أدهم) .. ولن أكون مبالغًا ، لو قلت إنها تفُوق كل أجهزة الاستخبارات فى العالم أجمع .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، على حين عاد (أندريه) يميل نحوه ، قائلًا فى صرامة :

ــ ماذا تريد بالضبط يا سيِّد (أدهم) ؟

اعتدل (أدهم) فى مقعده ، وقال فى هدوء :

ــ أريد منك أن تعود معنا إلى القاهرة يا سيِّد (أندريه) .

حدَّق (أندريه) فى وجه (أدهم) بدهشة ، على حين تطلَّعت (منى) إلى (أدهم) فى حَيْرة ، دون أن تفهم سرَّ هذه المصارحة العجيبة ، وبعد فترة قصيرة من الدهشة ضحك (أندريه) فى توتُّر ، وقال :

هل تتصوَّر أن أطيعك يا سيِّد (أدهم) ؟.. هل تظن أننى أخشاك كما يفعل البعض ؟

قال (أدهم) فى هدوء ، ودون أن تفارق الابتسامة شفتيه :

ــ سأدفعك دفعًا إلى ذلك .

بدت عبارة (أدهم) مفعمة بالتحدِّى ، حتى أن ملامح (أندريه) امتلأت بالغضب ، وهو يقول :

ــ هل تراهن ؟

وبهدوء شديد ، وبنفس الابتسامة الساخرة ، قال (أدهم) :

ــ أراهن .

مال (أندريه) نحوه ، وقال فى تحدّ :

ــ إذا نجحت فى دفعى إلى العودة معكما إلى القاهرة ، فسأدلى باعتراف صريح دون مناقشة ، فور وضع قدمىَّ على الأراضى المصرية .

ثم ابتسم فى تحدّ ، وأردف :

ــ وإذا فشلت فى دفعى إلى ذلك خلال أسبوع واحد ، فسأعمل على إرسالكما إلى (سيبيريا) .

نهض (أدهم) ، وقال فى تحدّ :

ــ اتفقنا .

نهض (أندريه) بدوره ، ومدَّ يده ليصافح (أدهم) ، ولكن (أدهم) ابتسم فى سخرية ، وقال :

ــ لم أعتد مصافحة الأوغاد .

ثم أمسك معصم (منى) ، التى لم يفارقها الذهول بعد ، واتجه إلى باب الخروج ، ولكن (أندريه) أوقفه ، قائلًا :

ــ مهلًا يا رجل المخابرات المصرية .

استدار (أدهم) و (منى) فى هدوء ، فطالعهما مسدس صغير يصوِّبه إليهما (أندريه) ، وهو يردف فى غضب :

ــ ماذا يمنعنى من قتلكما الآن ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره :

ــ لأن مسدَّسك غير مزود بكاتم للصوت ، ورصاصة واحدة فى (موسكو) ، يكفى صوتها لإحاطة المدينة كلها برجال الأمن ، ثم إن إخراج جثتينا من هنا يكاد يكون مستحيلًا .. فلا ريب أن سلطات (موسكو) تراقبك طوال الأربع والعشرين ساعة يوميًا ، بعد أن أبطلت مفعول أجهزة التصنُّت الخاصة بهم .

احتقن وجه (أندريه) غضبًا ، وقال وهو يلقى مسدَّسه فى درج مكتبه :

ــ أسبوع واحد يا سيِّد (أدهم) .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ ستطأ قدماك أرض مصر قبل نهايته أيها الوغد .

ازداد احتقان وجه (أندريه) ، وهو يراقب مغادرة (أدهم) و (منى) لحجرته ، ثم ضغط زرًّا صغيرًا ، مخفيًّا بمهارة فى ركن مكتبه ، فدلف إلى حجرته رجل طويل القامة ، قوى الجسم ، بادره (أندريه) ، قائلًا :

ــ هل سمعت حديثنا يا (هيرمان) ؟

غمغم (هيرمان) فى ضيق :

ــ سمعته ، ولم يعجبنى يا مستر (أندريه) .

ابتسم (أندريه) ، وقال وهو يرفع سمَّاعة الهاتف :

ــ ولكننى أعتقد أنه سيعجب الرفيق (ياكوف) كثيرًا .

عقد (هيرمان) حاجبيه ، وغمغم وهو يرقب (أندريه) ، الذى يدير قرص الهاتف :

ــ أظننى سمعتك تقول أسبوعًا كاملًا !

ضحك (أندريه) ، وقال :

ــ القواعد وضعت لنخرقها يا عزيزى (هيرمان) .

ثم رسم على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يقول فى الهاتف :

ــ كيف حالك يا عزيزى الرفيق (ياكوف) ؟.. أنا (أندريه جريج) ، من شركة القمح الغربية ، لدىَّ هنا أخبار سيسيل لها لُعابك .

* * *



٤ ــ وبدأت المطـاردة ..

سارت (منى) إلى جوار (أدهم) وسط الثلوج صامتة ، ولم يكد الاثنان يبتعدان عن شركة القمح الغربية ، حتى هتفت فى حَنَق :

ــ لست أفهم سببًا لهذا التحدِّى العجيب ، إنك تزيد الأمر تعقيدًا .

ابتسم وهو يقول فى هدوء :

ــ امنحينى ثقتك يا عزيزتى .

هتفت فى غضب :

ــ امنحنى أنت ثقتك أولًا ، ودَعْنى أفهم ما ترمى إليه و . . .

وبترت عبارتها فجأة ، وهى تغمغم :

ــ يا إلٰهى !!.. هناك رجلان يتبعاننا ، منذ مغادرتنا الشركة يا (أدهم) .

أجابها فى هدوء :

ــ أنت قوية الملاحظة يا عزيزتى ، ولكن فاتك أنهما يتعقبانا قبل دخولنا أيضًا .

ازداد وجهها شحوبًا ، وهى تغمغم :

ــ يا إلٰهى !!.

ابتسم (أدهم) ، وقال :

ــ سيزداد الأمر صعوبة ، بعد أن يبلغ (أندريه) مكتب مكافحة التجسُّس السوفيتى عنَّا يا عزيزتى .

سألته وهى ترتعد بردًا ، وخوفًا :

ــ وهل سيفعل ؟

أجابها فى هدوء :

ــ بالطبع يا عزيزتى .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم هتفت فى غضب :

ــ لماذا دفعته إلى ذلك إذن ؟

جذبها من ذراعها فجأة إلى شارع جانبى ، خالٍ من المارة ، وازدادت سرعته وهو يتحرَّك داخله ، على حين اضطرت هى للعَدْو خلفه ، وهى تهتف :

ــ ماذا نفعل ؟

أوقفها فجأة ، ثم ترك ذراعها ، وعاد أدراجه فى سرعة إلى



ولم يكد كل منهما يلمح ابتسامة (أدهم) الساخرة حتى توقفا فجأة ، وامتدت أيديهما إلى معاطفهما ..

مدخل الشارع الجانبى .. ولم يكد يصل إليه ، حتى ظهر الرجلان اللذان يتبعانهما ، وهما يعدُوَان ، خشية أن تفلت منهما الطريدتان .. ولم يكد كل منهما يلمح ابتسامة (أدهم) الساخرة ، حتى توقفا فجأة ، وامتدت أيديهما إلى معاطفهما ، وهنا قال (أدهم) بالروسية :

ــ لا أسلحة أيها الرفاق .

كانت لهجته الروسية سليمة ، حتى أن أصابع الرجلين تجمَّدت فجأة ، على مقبض مسدسيهما ، وقد ظنَّا أنهما يواجهان أحد مواطنيهما .. وفى لحظة التجمُّد هذه ، انبعثت حرارة القتال فى جسد (أدهم) ..

انطلقت قبضة (أدهم) إلى فكِّ الرجل الأول فى قوة ، ألقته أرضًا ، فى نفس اللحظة التى غاصت فيها قدمه فى معدة الثانى .. وقبل أن ينهض الرجلان القويان لمواصلة القتال ، عادت قبضة (أدهم) اليمنى ترتطم بأنف الأول ، وهوت قبضته اليسرى على فكِّ الثانى ، وانتهى القتال فى لحظات ..

التقط (أدهم) مسدسى الرجلين بسرعة ، ثم ناول أحدهما إلى (منى) ، وقال فى لهجة متهكِّمة :

ــ ها قد حصلنا على سلاحين يا عزيزتى .

ثم التقط يدها ، وأسرع بها إلى نهاية الشارع ، وهى تهتف فى حَنق :

— إنك تزيد الأمور تشابكًا وتعقيدًا يا (أدهم) .

قال وهو ينحنى بها إلى طريق آخر رئيسى :

— اطمئنى يا عزيزتى .. هذا هو ما أسعى إليه بالضبط .

توقَّفت بغتة ، وجذبت ذراعها من يده فى قوة ، وقالت فى صرامة :

— تسعى لأن نصبح مطاردين فى روسيا بأكملها ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، وقال فى هدوء :

— نعم يا عزيزتى ، وهذا لا يقلقنى .. فما هى إلَّا ساعة واحدة ، ويختفى (أشرف صابر) و (منى توفيق) من روسيا تمامًا .

* * *

أغلق (ياكوف) سمَّاعة الهاتف ، وشبَّك أصابع كفَّيه أمام وجهه ، وعقد حاجبيه وقد ارتسمت فى ملامحه دلائل التفكير العميق ، فسأله زميل مكتبه (أيڤانوف) :

— ماذا حدث يا رفيق (ياكوف) ؟

تطلَّع إليه (ياكوف) بعينين شاردتين ثم تنهَّد ، وقال :

— هناك أمور غامضة تحدث فى (موسكو) ، لا أفهمها ، وهذا يثير غضبى .

اعتدل (إيڤانوف) ، وظهر الاهتمام فى ملامحه وهو يقول :

— أيَّة أمور ؟

نقر (ياكوف) بأصابعه على سطح مكتبه لحظات ، ثم قال :

— هذا الصباح التقطت أجهزة التصنُّت فى الفندق الكبير ، حديثًا مثيرًا للريبة ، بين مصرى وزوجته .. ولقد أصدرت أوامرى بتشديد المراقبة عليهما ، ولقد توجَّها إلى شركة الغلال الغربية ، التى يرأسها هذا الرجل المريب (أندريه جريج) ، الذى أفسد أجهزة التصنُّت الخاصة بنا ، ثم غادراها بعد نصف ساعة فقط ، وبعد مغادرتهما تمامًا ، اتصل بى (أندريه) هذا ، وأخبرنى أنهما ينتميان إلى جهاز المخابرات المصرى ، وبعد مكالمته بربع ساعة ، اتصل بى أحد رجالنا ، وقال إنهما تخلَّصا من المراقبة ، ولم نعد نهتدى لأثرهما .

هتف (إيڤانوف) فى ذُعر :

— يا للشيطان !!

ثم اعتدل فى حركة حادَّة ، وتابع فيما يشبه الصياح :

— إنهما جاسوسان يا (ياكوف) .. لا مجال للشك .

أومأ (ياكوف) برأسه فى هدوء ، وقال :

— أعلم ذلك أيها الرفيق (أيڤانوف) ، وأراهنك أنهما ما قدما إلى هنا إلَّا من أجل (أندريه جريج) هذا .

هتف (إيڤانوف) فى غضب :

— وهل ستتركهما مطلقى السراح هكذا فى (موسكو) ؟.. أنت تعلم أن هذا قد يفقدنا منصبينا .. بل قد يتسبَّب فى نفينا إلى (سيبيريا) أيضًا .

ابتسم (ياكوف) ابتسامة شفَّت عن ذكاء شديد ، وقال فى هدوء :

— لن نفعل يا (إيڤانوف) .. إنهما سيعودان إمَّا إلى الفندق ، أو إلى (أندريه) .. وحتى يفعلا ، سأصدر أوامرى بفحص أوراق كل رجل وامرأة فى (موسكو) .

واتسعت ابتسامته ، وهو يردف فى برود :

— وسيكون عليهما أن ينكمشا إلى حجم الباعوضة ، حتى يمكنهما الإفلات يا عزيزى الرفيق (إيڤانوف) .. لقد نسيا أنهما فى (موسكو) .

* * *

٥ ـ خُطَّة الشيطان ..

شهر الجندى السوفيتى مدفعه الرشاش ، فى وجه رجل طويل القامة ، مفتول العضلات ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، تسير إلى جواره حسناء شقراء ، لها عينان فى لون السماء ، حينما تنعكس صورتها على الثلوج ، وصاح فى صرامة :

— أوراقك .

ظهر القلق على وجه الرجل ، وقال وهو يخرج أوراقه فى توتُّر :

— إننا لم نخطئ فى شىء ، أيها الرفيق الجندى .

كان يتحدَّث بروسية شعبية ، لا يرقى إليها الشك ، ففحص الجندى أوراقه على عجل ، وناوله إيَّاها ، وهو يقول لرفيقته :

— أوراقك أيضًا .

تناول الأشقر من رفيقته أوراقها ، وناولها إلى الجندى الذى فحصها وهو يغمغم :

— اسمك (ڤولجا) ؟

حدَّقت الشقراء فى وجهه ، وكأنها لا تفهم ما يقول ، ثم رفعت عينين حائرتين إلى رفيقها ، الذى ربَّت على كتفها فى رفق ، وقال للجندى :

ــ زوجتى خرساء بكماء أيها الرفيق الجندى ، وهذا مدوَّن فى أوراقها .

اطَّلع الجندى بسرعة ، على الفقرة التى توضح ذلك فى الأوراق ، ثم ناولها إلى الأشقر ، والتفت إلى مواطن آخر ، صائحًا بالصرامة نفسها :

ــ أوراقك .

جذب الأشقر زميلته ، وابتعد بها عن الجندى .. ولم يكد يفعل ، حتى زفرت فى ضيق ، وغمغمت باللغة العربية :

ــ يا إلهى !!.. إنها خامس مرة يفحصون فيها أوراقنا خلال ساعتين فقط .

ابتسم الأشقر ، الذى لم يكن سوى بطلنا (أدهم صبرى) ، وقال :

ــ (موسكو) كلها تبحث عنَّا يا عزيزتى ، ولكن أوراق صديقنا البدين (قدرى) تصنع المعجزات .

سألته فى حَنَق :

ــ ألم يحُن الوقت بعد لتشرح لى خُطَّتك الارتجالية هذه ؟

هزَّ كتفيه ، وهو يقول :

ــ إنها ليست خُطَّة ارتجالية يا عزيزتى ، لقد وضعت المخابرات المصرية تفاصيل هذه الخُطَّة بأكملها .. أما عن الزميل الذى يقيم هنا فى (موسكو) ، فهو رجلنا الدائم هنا ، وهو الذى أمَّن لنا أدوات التنكُّر .

سألته فى دهشة :

ــ ولكن ماذا تقصد الإدارة بهذه الخُطَّة ، التى أعتبرها مكشوفة للغاية ؟

أجابها (أدهم) فى هدوء :

ــ لقد سقط ذلك الوغد (أندريه جريج) فى الفخ ، دون أن يدرى يا عزيزتى .. لقد كشفت له شخصيتى ، وأثرت قلقه ، حتى أنه سيسارع بإبلاغ السلطات السوفيتية عنَّا ، وبعدها نفلت نحن من المراقبة ، ونختفى تمامًا فى قلب (موسكو) .. وهنا لن يكون أمامهم سواه ، وسيعتصرونه عصرًا ، فى محاولة لمعرفة كل ما لديه من معلومات عنَّا .. وبطبيعتهم الموروثة فى الشك ، لن يصدِّقوا حرفًا واحدًا مما سيدلى لهم به ، خاصة أنه سيخفى بالطبع السبب الرئيسى لوجودنا .. ومعلوماتهم السابقة

تؤكد أنه لا عداء ، أو حرب باردة بين (مصر) و (روسيا) ؛ لذا فسيحكمون حصارهم حوله ، وسيضيقون عليه الخناق ، حتى يتسلَّل الفزع إلى قلبه ، ويحاول الفرار ، ولكنهم لن يسمحوا له بمغادرة البلاد ، ما دمنا لم نظهر بعد ، وهنا لن يكون أمامه سوانا ، وسيتوسَّل لنا ــ حينذاك ــ أن نعاونه على الفرار .

استمعت إليه (منى) فى دهشة حتى انتهى ، ثم غمغمت :

ــ يا لها من خُطَّة !!

وأسرعت تردف فى اهتمام :

ــ وماذا علينا أن نفعل ، حتى يصل إلى تلك المرحلة ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ، وقال فى هدوء :

ــ سننتظر فقط يا عزيزتى .

ثم أمسك يدها ، وقال :

ــ الزمى الصمت يا زميلتى العزيزة .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفع صوت جندى سوفيتى آخر ، يقول فى صرامة :

ــ أوراقك .

* * *

استدار (أندريه) إلى رفيقه (هيرمان) ، الذى اقتحم مكتبه بادى القلق ، وسأله فى توتُّر :

ــ ماذا وراءك ؟.. لِمَ تبدو هكــذا ، وكــأنك رأيت الشيطان نفسه ؟

أشار (هيرمان) إلى باب المكتب ، وقال فى ذُعر :

ــ لقد حضر بنفسه إلى هنا .

سأله (أندريه) فى سخرية :

ــ الشيطان ؟!

هزَّ (هيرمان) رأسه نفيًا فى قوة ، وقال بصوت غلبه الانفعال :

ــ تقريبًا .. إنه الرفيق (ياكوف) .

تصلَّبت أطراف (أندريه) ، وهو يقول فى ذُعر :

ــ الرفيق (ياكوف) ؟!

وفجأة .. دفع (ياكوف) الباب ، وتقدَّم إلى الداخل ، وحَدَج (أندريه) بنظرة صارمة ، جمَّدت الدم فى عروقه ، وهو يعقد كفَّيه خلف ظهره ، قائلًا فى هدوء :

ــ كيف حالك أيها الرفيق (أندريه) ؟

عجز (أندريه) عن النطق لحظة ، ثم خرج صوته من بين شفتيه شاحبًا كوجهه ، وهو يغمغم :

ـــ بخير حال أيها الرفيق (ياكوف) ، بخير حال .

مطَّ (ياكوف) شفتيه ، ونظر إلى (هيرمان) ، وهو يقول فى صرامة :

ـــ أريد أن نتحدَّث وحدنا أيها الرفيق (أندريه) .

أسرع (هيرمان) يغادر الحجرة ، وهو ينتفض ذُعرًا ، على حين دلف (إيفانوف) إلى الحجرة ، وأغلق الباب خلفه ، فتمتم (أندريه) فى رعب :

ـــ لقد قلت وحدنا أيها الرفيق (ياكوف) .

قال (ياكوف) بصوت أشد برودة من ثلوج روسيا فى الشتاء :

ـــ نحن وحدنا أيها الرفيق (أندريه) .

تطلَّع (أندريه) إلى (إيفانوف) ، الذى انتحى ركنًا جانبيًا ، وأشعل واحدة من السجائر الروسية ، ذات الرائحة النفَّاذة ، وراح ينفث دخانها فى هدوء مخيف ، ولكن (أندريه) لم يجرؤ على الاعتراض ، وابتلع ريقه فى صعوبة ، ثم غمغم فى صوت مختنق :

ـــ خيرًا أيها الرفيق (ياكوف) .

جلس (ياكوف) فوق المقعد المواجه لـ (أندريه) وحدَّق فى عينيه مباشرة ، ثم قال فى هدوء :

ـــ هل تعمل فى المخابرات الغربية أيها الرفيق (أندريه) ؟

انتفض جسد (أندريه) فى ذُعر ، وهتف :

ـــ أنا ؟!.. مطلقًا أيها الرفيق .. كيف دارت هذه الفكرة برأسك ؟ و ....

قاطعه (ياكوف) فى برود :

ـــ كيف علمت بأمر فَرْدَىِ المخابرات المصرية إذن ؟

ارتبك (أندريه) ، وشحب وجهه على نحو واضح ، فهو لم يكن يتوقَّع مثل هذا السؤال ، عندما أبلغ (ياكوف) عن (أدهم) و (منى) ، وزاد من ارتباكه تلك النظرات الغامضة ، التى كان (ياكوف) يرقبه بها ، كما لو كان ينفذ إلى أعماقه ، فتلعثم (أندريه) وهو يقول :

ـــ هما اللذان أخبرانى و ....

قاطعه (ياكوف) مرة أخرى :

ـــ لماذا ؟

ازداد ارتباك (أندريه) وتلعثمه ، وفجأة خيِّل إليه أنه قد توصَّل إلى مخرج ، فهتف :

ـــ لقد أرادا تجنيدى لحساب المخابرات المصرية ، ولكننى رفضت ، وأبلغتكما عنهما .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (إيفانوف) ، على حين غمغم (ياكوف) فى هدوء :

ـ هكذا ؟!

ثم مال نحو (أندريه) ، وقال :

ـ هل قدما إلى مكتبك ، وأخبراك فى صراحة ، أنهما من المخابرات المصرية ، وطلبا منك العمل لحسابهما ؟

شعر أندريه بالفخ ، الذى يقوده إليه (ياكوف) فى هدوء ، وزاد هذا من ارتباكه وجزعه ، فانكمش فى مقعده ، وغمغم :

ـ هذا ما حدث أيها الرفيق .

ظلَّ (ياكوف) يحدِّق فى عينى (أندريه) لحظة ، ثم نهض من مقعده ، وشبَّك أصابع كفَّيه خلف ظهره ، وقال :

ـ حسنًا أيها الرفيق (أندريه) .. ستصحبنا إلى الإدارة ، وتدلى بأقوالك هذه هناك .

ازداد شحوب وجه (أندريه) ، حتى بات من العسير تمييز ملامحه ، من الثلوج التى تغطى حافة نافذته ، وغمغم :

ـ لماذا الإدارة أيها الرفيق ؟

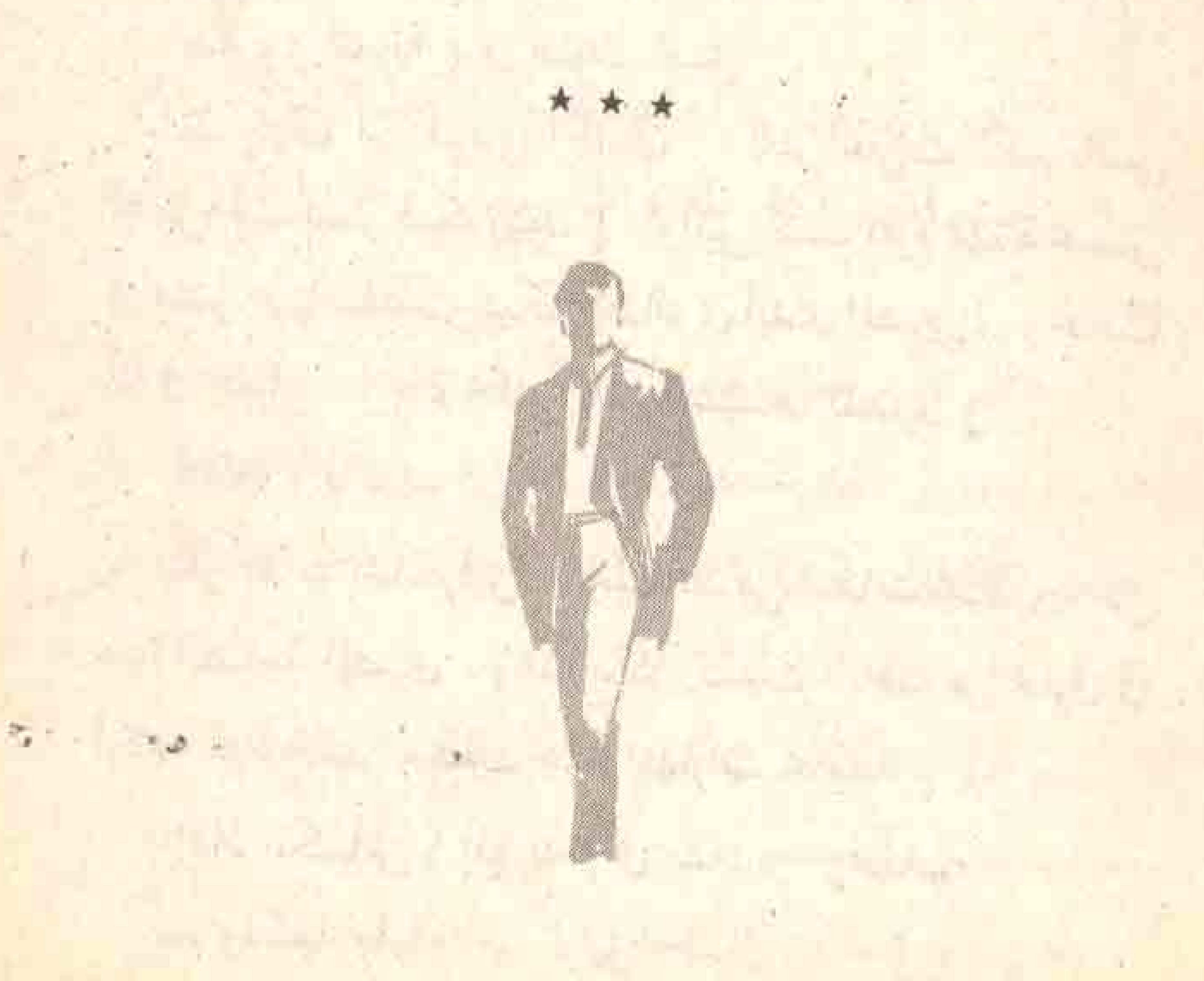
عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ـ لأنك تكذب أيها الرفيق (أندريه) ، ولدينا فى الإدارة عقَّارًا ممتازًا ضد الكذب .

انهار (أندريه) فى مقعده ، وسقط رأسه من فوق صدره ، وغمغم فى انكسار :

ـ سأخبرك بكل شىء أيها الرفيق .. بكل شىء .

* * *



٦ ـ الفشل ..

استمع (ياكوف) فى صبر واهتمام ، إلى كل كلمة نطق بها (أندريه) ، ثم قال فى برود :

ـ أنت ما زلت تكذب أيها الرفيق (أندريه) .

هتف (أندريه) فى صوت مختنق :

ـ كيف أيها الرفيق الجنرال .. لقد اعترفت لكم بأننى أعمل لحساب (سكوربيون) ، وأننى كنت أقوم بمهمة تجسُّس فى مصر حينما سقطت شبكتى هناك فى أيدى المصريين ، ونجحت أنا فى الفرار ، وجاء خلفى هذا الشيطان المصرى و ....

قاطعه (ياكوف) :

ـ كذب أيها الرفيق .. إنك تضفى صفات أسطورية على هذا الضابط المصرى ، وهذا يؤكد كذبك .. فما من مخلوق فى أركان العالم كلها ، يمتلك هذه المهارات مجتمعة .

ازداد انكماش (أندريه) فى مقعده ، وغمغم :

ـ ولكنها حقيقة أيها الرفيق الجنرال .

ثم تذكَّر فجأة أمرًا غاب عن ذهنه ، فهتف فى أمل :

ـ إنه الرجل نفسه ، الذى أوقع (إيفان مالاخوف) ، مدير شرطة (موسكو) السابق ، ونجح فى الفرار منكم على متن واحدة من طائراتكم (الميج) ، وبصحبته سوفيتى يدعى (أليكسى)(*) .

جاء دور (ياكوف) ليشحب وجهه ، وهو يغمغم فى ذهول :

ـ كيف وصلتك كل هذه المعلومات أيها الرفيق ؟.. إنها تندرج تحت قائمة أكثر المعلومات سرِّيَّة ، ونحن لم نشر إليها قط .

ثم عقد كفَّيه خلف ظهره ، وقال فى صرامة :

ـ يبدو لى أنك شخص أشد خطورة ، مما كنا نتصوَّر أيها الرفيق (أندريه) ، ولا أعتقد أننا سنتخلَّى عنك بسهولة .

صرخ (أندريه) فى فزع :

ـ كلَّا .. كلَّا .. يمكننى أن أعاونكم فى القبض عليه .

(*) راجع قصة (الجليد الدامى) . المغامرة رقم (٥) .

تألَّقت ابتسامة غامضة على شفتى (ياكوف) ، وقال فى بطء :

ـ ستفعل أيها الرفيق .. ستفعل .

★ ★ ★

على بعد أمتار قليلة من الشركة الغربية للغلال ، همس (أدهم) فى أذن (منى) :

ـ يبدو أن أصدقاءنا السوفيت ، قد بدءُوا حصارهم لذلك الوغد .. فهذه السيارة التى تقف أمام شركته تؤكد أن لديه زائرًا يحمل رتبة جنرال على الأقل .

لم يكد (أدهم) يتم عبارته ، حتى برز وجه (ياكوف) فجأة من نافذة مكتب (أندريه) ، وصاح فى رجال الحراسة ، الذين يملئون الطرقات ، بكلمات آمرة ، أسرع بعدها رجال الحراسة يعدون فى كل اتجاه ، وغمغم (أدهم) فى لهجة تشف عن القلق :

ـ يا إلهى !!.

سألته (منى) ، التى لم تفهم حرفًا واحدًا من كلمات (ياكوف) ، فى ذعر :

ـ ماذا حدث ؟

جذبها (أدهم) من يدها ، وأسرع بها الخُطَا ، وهو يقول :

ـ لقد أمر هذا الرجل حُرَّاسه بالانتشار ، فى مساحة نصف كيلومتر حول الشركة ، وتفتيش كل رجل وامرأة فى هذا النطاق .

هتفت (منى) فى فزع :

ـ ولكن لماذا ؟

قال (أدهم) وهو يزيد من سرعة حركته :

ـ أعتقد أن (أندريه) قد انهار سريعًا يا عزيزتى .

★ ★ ★

تطلَّع (إيفانوف) إلى (ياكوف) بعينين ملؤهما الدهشة ، وغمغم فى حنق :

ـ ماذا تعنى أوامرك الأخيرة هذه ؟

ابتسم (ياكوف) ابتسامة ، جعلته أشبه بالثعلب ، وقال فى هدوء :

ـ تعنى الكثير أيها الرفيق (إيفانوف) .

ثم أردف فى دهاء :

ـ مادام ضابط المخابرات المصرى هذا ينتظر استسلام

(أندريه) فلابدَّ له من أن يحُوم حول شركته معظم الوقت .. ولو أنه حقًا الرجل الذى ذكره (أندريه) ، فهذا يعنى أنه يجيد التحدُّث بالروسية ، كأحد أبنائها ، ويجيد التنكُّر إلى نحو مذهل ؛ لذا فالوسيلة الوحيدة للإيقاع به ، هى العثور على المسدَّسين ، اللذين اغتصبهما من رجلى المراقبة .

رفع (إيفانوف) حاجبيه ، وعاد يخفضهما وهو يبتسم فى إعجاب ، مغمغمًا :

ــ أنت داهية أيها الرفيق الجنرال .

ابتسم (ياكوف) ، وقال فى هدوء مغرور :

ــ إنها حرب ثعالب يا عزيزى الرفيق (إيفانوف) .

فى اللحظة نفسها كان (أدهم) يحث الخُطَا ، محاولًا تجاوز منطقة الحصار ، وهوَ يجذب خلفه (منى) ، ويحاول فى الوقت نفسه عدم جذب الانتباه إليهما .. وفجأة .. وفى أثناء دورانه حول أحد المنعطفات ، وجد نفسه أمام بعض الجنود السوفيت ، الذين يقومون بتفتيش المارة ..

حاول (أدهم) أن يعود أدراجه مع (منى) ، ولكنه رأى بعض الجنود يحتلُون مدخل الشارع من الناحية الأخرى ، ويقومون بالتفتيش بذورهم ..

غمغمت (منى) فى توتُر :

ــ كل أبواب المنازل مغلقة .. لن يمكننا الإفلات .

لم يجبها (أدهم) على الفور ، ولكن ملامحه نمَّت عن القلق البالغ ، الذى يعصف بنفسه ، وهو يتلفَّت حوله بحثًا عن مخرج ، ثم توقَّفت عيناه عند أحد الجنود ، وهو يقوم بتفتيش أحد المارة ، وغمغم فى قلق :

ــ يا إلٰهى !!.. المسدسان .

صمت (أدهم) لحظة ، ثم تابع فى هدوء :

ــ سيكشف المسدسان أمرنا يا (منى) .

سألته فى فزع :

ــ هل نلقيهما ؟

هزَّ رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال :

ــ سيراهما الجميع ، فالثلوج تغطى كل مكان ، وسيبدو مسدس معدنى كنقطة من الحبر الأسود ، على سطح ناصع البياض .

غمغمت (منى) فى يأس :

ــ لافائدة إذن .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم همس (أدهم) فى حزم ، يشفّ عن اتخاذه لقرار خطير :

ــ هل تعرفين موقع السفارة المصرية فى(موسكو) يا (منى) ؟

أجابته فى دهشة :

ــ بالطبع .

تنهّد فى ارتياح ، وقال وهو يشد على يدها فى قوة :

ــ ما أن يبدأ القتال ، ابتعدى بسرعة ، وانطلقى فورًا إلى السفارة المصرية ، واطلبى مقابلة السفير ، وسيتفهَّم الأمر فى سرعة ، فلقد أبلغته الإدارة بمهمتنا ، كما يقتضى العُرف .

هزّت رأسها نفيًا فى قوة ، وقالت :

ــ لن أتركك وحدك .

بدت لها نظراته صارمة مخيفة ، وهو يقول :

ــ هذا أمر أيتها النقيب .

التمعت عيناها بالدموع ، وهى تقول فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ــ كلَّا يا (أدهم) .. أرجوك .

التقط المسدس الثانى من حقيبتها فى خفَّة ، ودسَّه فى جيب معطفه ، وأزاحها عنه فى هدوء ، وهو يكرِّر :

ــ هذا أمر ..

غمغمت (منى) ، وهى تشاهده يبتعد عنها فى خطوات سريعة ، إلى حيث يقف جنود التفتيش :

ــ (أدهم) ..

كانت تعلم أنه يضحِّى بنفسه من أجلها ، ومن أجل مصر .

* * *



٧ ــ تحت الصفر ..

تقدَّم (أدهـم) بخطوات واثقـة ، هادئـة ، نحو الجنـود السوفيت ، وقال لأحدهم فى هدوء :

ــ أفسح الطريق أيها الرفيق الجندى .

رفع الجندى مدفعـه الرشـاش فى وجـه (أدهم) ، وقال فى صرامة :

ــ ارفع يديك للتفتيش .

وفى سرعة مذهلة خرجت يدا (أدهم) من جيبى معطفه ، وبسرعة البرق هوَت قبضته كالقنبلة على وجه الجندى ، الذى ترنَّح ، ودارت رأسه ، وجحـظت عينـاه وهـو يهوى أرضًا ، وتحرَّك الجنود الآخرون فى سرعة ، فاندفعوا نحو (أدهم) من كل صَوْب ، ومدافعهم الرشاشة مصوَّبة إلى جسده ، ولكنه قفز قفزة مذهلة ، عَبَر بها أجساد أربعة جنود فى مواجهتـه ، وهبـط خلفهـم ، ثم انتـزع من جيبـى معطفـه المسدسين ، وأطلقهما فى آن واحد ..

سبـع طلقـات دوَت متعاقبـة ، حتـى لقـد ظنها الجميـع رصاصتين لا غير ..

وطارت المدافع الرشاشة من أيدى الجنود السبعة الذيـن ألجمهم الذهول ، فلم يتحرَّك أحدهم خطوة واحدة ، حينما مرق (أدهم) من بينهم ، واندفع يعدُو كالصاروخ فوق الثلوج ..

أفاق الجنود السبعة من ذهولهم بسرعة ، وعادوا يختطفون مدافعهم الرشاشة ، ويمطرون (أدهم) برصاصاتها ..

شعر (أدهم) برصاصات السوفيت تتناثر حوله ، دون أن تصيبه واحدة منها ، فزاد من سرعة عَدْوه ، حتى أقسم البعض أنه تجاوز الرقم الأوليمبى الأخير ، على الرغم من الثلوج الزلجة ، التى يعدُو فوقها ..

وفجأة .. برز أمامه عدد من الجنود السوفيت ، داخـل سيارة جيب كبيرة ، وتوقَّف (أدهم) دفعة واحدة ، ورفـع مسدسيه فى وجه السيارة ، ولكنه انزلق ..

فقد جسده توازنه مع ذلك التوقف المفاجئ وسط الثلوج ، فسقط بينها ، وأفلت أحد المسدسين من قبضته .. ولم يكد ينهض مستعدًّا لمواصلة القتال ، حتى وجد أمامه خمسة مدافع رشاشة ، يطلّ منها الموت ، وسمع صوتًا صارمًا يقول :

ـ حركة واحدة ، وتتحوَّل إلى مصفاة .

كانت مواصلة القتال فى هذه الحالة يُعَدُّ ضربًا من الجنون ؛ لذا فقد ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وألقى المسدس الثانى ، وهو يقول بالروسية :

ـ إننى أفضل الاحتفاظ بجسدى كما هو أيها الرفيق .

تناهى إلى سمعه فى تلك اللحظة صوت أقدام تقترب منه ، وفجأة هوَى على رأسه شىء ثقيل ، وأظلمت الدنيا أمامه ، ثم سقط فاقد الوعى .

وشاهدت (منى) ـ من خلال دموعها ـ الجنود السوفيت ، وهم يحملون (أدهم) إلى السيارة ، التى انطلقت مبتعدة ، فازداد انهمار الدموع من عينيها ، وغمغمت فى صوت متحشرج :

ـ وداعًا يا (أدهم) .. وداعًا يا (رجل المستحيل) .

* * *

ـ رسالة من (موسكو) يا سيِّدى .

نطق المقدم (حازم عبد الله) بهذه الكلمات ، فى صوت تغلُب عليه رنَّة الحزن والانفعال ، فرفع مدير المخابرات المصرية عينيه إليه ، وسأله فى توتُّر :

ـ مِنْ (أدهم) ؟

هزَّ (حازم) رأسه نفيًا فى هدوء ، وأجاب :

ـ لا يا سيِّدى .. مِنْ سفارتنا هناك .

غلب الانفعال مدير المخابرات ، فهتف فى لهفة :

ـ اقرأها بالله عليك .

قال (حازم) ، وهو يعقد حاجبيه جزنًا :

ـ يقول سفيرنا هناك ، إن النقيب (منى توفيق) قد حضرت إليه ، ودموعها متجمِّدة على وجنتيها ، وأخبرته أن السوفيت ألقوا القبض على (أدهم) ، وأن المهمة قد فشلت .

غمغم مدير المخابرات فى ألم :

ـ فشلت ؟!

ثم عاد يسأل فى لهفة :

ـ وماذا أصاب (أدهم) ؟

أجابه (حازم) فى حزن :

ـ لا أحد يعلم شيئًا عن مصيره يا سيِّدى .. آخر ما رأته (منى) هو الجنود السوفيت ، وهم يحملونه فاقد الوعى ، إلى مكان مجهول .

تراجع مدير المخابرات فى مقعده ، وبات من الواضح أن الحزن يعتصر نفسه ، وهو يقول :

ــ فاقد الوعى ؟!

ثم نهض من مقعده ، وسار فى الحجرة ، وهو يشبِّك أصابع كفَّيه خلف ظهره ، ومرَّت فترة طويلة من صمت ثقيل ، قبل أن يقول مدير المخابرات فى صوت يغلِب عليه الحزن :

ــ اتصل برئاسة الجمهورية يا (حازم) .. لابدَّ لنا من بدء مفاوضات استعادة (أدهم) على الفور ..

تردَّد (حازم) لحظة ، ثم قال :

ــ ألا ننتظر قليلًا حتى تتضح الأمور يا سيِّدى ؟

عاد مدير المخابرات إلى صمته دقيقة كاملة ، ثم غمغم :

ــ لقد عملت سفيرًا لمصر فى الاتحاد السوفيتى عامين ، قبل أن أتولَّى هذا المنصب يا (حازم) ، وأعرف طبيعة السوفيت جيِّدًا .

صمت لحظة أخرى ، ثم أردف فى صوت حزين :

ــ مالم نبدأ التفاوض فى الحال ، يمكنك اعتبار هذه آخر مهام (رجل المستحيل) .

* * *

استعاد (أدهم) وعيه فى بطء ، وشعر ببرودة قارصة فى أطرافه ، ففتح عينيه فى هدوء ، وطالعته صورة مهتزة ، لم تكد ملامحها تتضح ، حتى تبيَّن له وجه (ياكوف) ، وسط زنزانة صَغيرة عارية الجدران ، لها نافذة واحدة ، تعلو عن الأرض بثلاثة أمتار كاملة ، وباب صغير من الصلب ، ومصباح ضعيف الإضاءة ..

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، على الرغم من الدوىِّ الشديد ، الذى يعصف برأسه ، وقال بلغة روسيَّة سليمة :

ــ أهو أنت أيها الرفيق (ياكوف) ؟

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى برود :

ــ أنت تعرفنى إذن !!.. من أنت بالضبط ؟

أجابه (أدهم) ، وهو يعتدل جالسًا :

ــ مندوب من وزارة الزراعة المصرية ، واسمى (أشرف صابر) .

سأله (ياكوف) فى صرامة :

ــ ولماذا لم تبلغنا السلطات المصرية بقدومك ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ، وقال :

ــ لأننى لم آت فى مهمة رسمية .

ابتسم (ياكوف) ابتسامة شفَّت عن دهائه ، وهو يقول :

ــ وهل من عادة مندوبى وزارة الزراعة فى مصر ، التحدث بالروسية بكل هذه الطلاقة ، ومعرفة رجال مكتب مكافحة التجسُّس .

بادله (أدهم) نفس النظرة الباردة ، الصارمة ، وقال فى هدوء :

ــ ستثير أزمة ديبلوماسية باحتجازى هنا أيها الرفيق (ياكوف) .

ابتسم (ياكوف) ابتسامة صفراء ، وقال :

ــ ومن قال إننا نحتجزك ؟.. إننا لم نرك منذ وصولك إلى بلدنا المسالم .. هذا ما سنبلغه لدولتك رسميًّا .

ثم أردف فى لهجة ذات مغزى :

ــ أيها الرفيق (أدهم صبرى) .

ساد الصمت بينهما لحظة ، تبادلا فيها نظرات التحدِّى ، ثم أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة قصيرة ، وقال :

ــ لقد أخطأت نطق اسمى أيها الرفيق (ياكوف) ، فأنا أدعى (أشرف صابر) .

مطَّ (ياكوف) شفتيه ، وقال :

ــ سنرى أيها الرفيق .

ثم استدار على نحو عسكرى محض ، ودقَّ باب الزنزانة المعدنى دقَّة واحدة ، ثم التفت إلى (أدهم) ، وقال :

ــ سيملأ رجالى زنزانتك بالماء أيها الرفيق ، وأحذِّرك أنه سيتجمَّد على الفور .. فدرجة البرودة تصل اليوم إلى أربعين تحت الصفر .

فتح جندى سوفيتى يحمل مدفعًا رشاشًا باب الزنزانة ، فى نفس اللحظة التى استطرد فيها (ياكوف) ، فى لهجة أقرب إلى الشماتة :

ــ وعندما نلتقى فى الصباح الباكر ، ستكون أكثر استعدادًا للكلام .

واستدار ليغادر الزنزانة ، وهو يردف :

ــ هذا إذا بقيت حيًّا أيها الرفيق .

* * *

٨ ـ الجليد الساخن ..

تحرَّك مدير المخابرات المصرية من مكتبه بتوتُّر .. ولم يكد يسمع صوت طرقات منتظمة على باب حجرته ، حتى صاح فى لهفة :

ـ ادخل يا (حازم) .

دلف (حازم) إلى الحجرة فى هدوء ، وأغلق بابها خلفه ، وسأله مدير المخابرات فى اهتمام :

ـ بِمَ أجابوا ؟

قال (حازم) فى ضيق :

ـ يقولون إن الأمر أخطر من أن يُتَّخذ فيه قرار سريعٌ .. فستعنى أيَّة خطوة من جانبنا أننا متورِّطون فى الأمر ، وسيعطى هذا فرصة للسوفيت لفرض شروط ، قد تؤدى إلى توتُّر العلاقة بين الدولتين .

عقد مدير المخابرات حاجبيه ، وهو يقول فى حَنَق :

ـ إنها السياسة مرَّة أخرى .

أجابه (حازم) فى صوت خافت :

ـ إنهم أيضًا يعملون لمصلحة مصر يا سيِّدى .

غمغم مدير المخابرات :

ـ أعلمَ ذلك يا (حازم) .. أعلم ذلك .

ثم أطلَّ من نافذة مكتبه ، وهو يستطرد :

ـ إننا نتقاضى مرتباتنا من أجل هذا وحده .

* * *

استدار (ياكوف) ليغادر زنزانة (أدهم) الصغيرة العادية ، وحجب بجسده ذلك الجندى ، الذى يمسك مدفعه الرشاش .. وهنا تحرَّك (أدهم) فى سرعة ..

انقضَّ فجأة على (ياكوف) ، وجذبه من عنقه فى قوة ، فى الوقت نفسه الذى تحرَّكت فيه ساقه اليسرى ، وركلت المدفع الرشاش من يد الجندى .. وقبل أن ينمحى أثر المفاجأة ، كان (أدهم) قد التقط المدفع الرشاش فى يمناه ، وضغط على عنق (ياكوف) بساعده الأيسر فى قوة ، وقال فى صرامة :

ـ إننى لا أنوى قضاء الليل وسط الثلوج أيها الرفيق ، خاصة بعد أن اختلستم معطفى وقفازاتى .

توقَّف الجندى مبهوتًا ، مذهولًا ، لا يجرؤ على إتيان حركة



وقبل أن ينمحى أثر المفاجأة ، كان (أدهم) قد التقط المدفع الرشّاش فى يمناه ..

واحدة ، على حين صاح (ياكوف) بصوت مختنق ، من أثر ضغط (أدهم) القوى على عنقه :

ــ هل أصابك الجنون ؟.. من المستحيل أن تفرّ من هنا .

قال (أدهم) فى سخرية :

ــ هل تراهن ؟!

هتف (ياكوف) :

ــ مستحيل .. سيكون عليك أن تعبُر ممرًا طويلًا ، يموج بعشرات من جنود الأمن ، والخروج من بوابة الإدارة و ....

ضحك (أدهم) فى سخرية ، وشدَّد من ضغط ساعده على عنق (ياكوف) ، وهو يقول :

ــ لن أفعل ذلك وحدى .

ثم أردف فى صرامة :

ــ ستساعدنى على الخروج من هنا أيها الرفيق (ياكوف) .

صرخ (ياكوف) فى حزم :

ــ مستحيل .. مستحيل .

* * *

شدَّ جنود إدارة مكافحة التجسسُ قامتهم ، وصنع صوت

أقدامهم دويًا فى الممر الطويل ، حينما عَبره (أدهم) فى خطوات واسعة ، وهو يرتدى زىّ (ياكوف) ويرخى قبعته الرسميّة ، لتخفى الجزء الأكبر من وجهه ، وساعده معطف (ياكوف) الثقيل على إخفاء نصف وجهه السفلى .. ولم يكد يصل إلى آخر الممر ، حتى قال فى صوت يستحيـــل تمييـــزه من صوت (ياكوف) ، وبنفس لهجته :

ـــ نفّذوا ما أمرتكم به .

ثم اندفـــع إلى الخارج ، وتوجَّـــه من فوره إلى ســـيارة (ياكوف) ، التى فتح سائقها بابها الخلفى فى احترام ، وأسرع يحتل مقعـد القيـادة ، وأدار المحرِّك ، ثم رفـع عينيـه إلى مرآة السيارة ، وهو يقول فى احترام :

ـــ إلى أين أيها الرفيق الجنرال ؟

لم يكد السائق يتم عبارته ، حتى جحظت عيناه ، وهتف وهو يركزهما على وجه الرجل ، الذى يبدو واضحًا فى مرآته :

ـــ ولكنك لست ....

بتر عبارته فجأة ، حينما شعر بفوّهة مسدَّس باردة ، تلتصق بمؤخرة عنقه ، وسمع صوت (أدهم) يقول فى سخرية :

ـــ إلى أى مكان خارج هذا الحصن البغيض أيها الرفيق السائق .. هذا إذا كنت تفضّل الحياة على الموت .

وبدون تبادل كلمة أخرى زائدة ، انطلق السائق بالسيارة ، حتى مدخل إدارة مكافحة التجسُّس ، وهناك أوقفه رجال الأمن ، وقال أحدهم فى هدوء :

ـــ أوراقك أيها الرفيق الجنرال .

تناول (أدهم) أوراق (ياكوف) من معطفه ، وناولها لرجل الأمن ، وهو يزيد من إرخاء قبعته ، لإخفاء وجهه تمامًا ، وألقى رجل الأمن نظرة خاطفة على الأوراق ، ثم أعادهـا إلى (أدهم) ، وغمغم فى اعتذار :

ـــ معذرة أيها الرفيق الجنرال .. إنها الأوامر .

وأشار بيده ، فانفتح جانبا البوّابة ، وأدار السائق محرِّكات السيارة مرَّة أخرى .

وفجأة .. اندفـع جنـدىّ من مبنى الإدارة ، وصرخ فى انفعال :

ـــ أوقفوا السيارة ، إنه رجل زائف .

وهنا دفع (أدهم) فوّهة مسدَّسه فى عنق السائق ، وصاح فى صرامة :

ـــ انطلق .

وانطلقت السيارة كالصاروخ ..

* * *

لم تمض لحظات قصار ، حتى اندفعت سيارتان مصفحتان خلف سيارة (أدهم) ، الذى قفز فى مهارة إلى المقعد المجاور للسائق ، وصاح به :

ــ زِدْ من سرعتك أيها الوغد .

هتف السائق فى رعب :

ــ هذا مستحيل يا سيدى .. ستنزلق السيارة على الثلوج لو فعلت ..

رأى (أدهم) فى مرآة السيارة المصفحتين تقتربان فى سرعة ، دفع السائق وهو يقول :

ــ اقفز إذن .

وكأنما كان السائق ينتظر هذه العبارة .. فلم يكد (أدهم) ينطق آخر حروفها حتى قفز السائق من السيارة ، وتركها تنطلق وحدها ..

وفى لمح البصر احتَّل (أدهم) مقعد القيادة ، وعاد يسيطر على السيارة وزاد من سرعتها إلى نحو جنونى ، وهو يقبض على عجلة قيادتها بقبضة كالفولاذ ..

كان الليل قد أرخى سدُوله ، وانتشر الجليد كثيرًا ، وباتت القيادة على هذا النحو ضربًا من الجنون .. ولكن (أدهم) لم

يتوقَّف ، ولم يقلِّل من سرعته قط ، حتى اتسعت المسافة بينه وبين المصفَّحتين ، وهنا انحرف فى طريق جانبى ، وأوقف السيارة فى هدوء ، وقفز منها ، وابتعد فى خطوات سريعة ، حتى غاب وسط الظلام ..

كان (أدهم) يسير فى سرعة ملفتة للانتباه ، ولكن الزِّىّ الروسىّ ، الذى كان يرتديه ، منع جنود الحراسة كلهم من مجرَّد الاقتراب منه ..

وكان يسير فى اتجاه يعرفه جيِّدًا ، حتى وصل إلى وجهته ، وتقدَّم من بوَّابتها فى ثقة ، إلَّا أن حارس البوَّابة الروسى أوقفه وسأله فى احترام :

ــ معذرة أيها الرفيق الجنرال ، هل لى أن أطَّلع على أوراقك ؟.. أكرِّر اعتذارى ، ولكن الأوامر تمنع دخول أى مخلوق إلى السفارة المصرية ، بعد منتصف الليل .

أطلَّت من عينى (أدهم) نظرة ، ومال حتَّى أصبح وجهه على بعد سنتيمترات قليلة من الجندى ، وقال بالروسية :

ــ ألا تعرف من أنا أيها الرفيق الجندى ؟

ارتبك الجندى المسكين ، وحاول جاهدًا أن يتذكَّر هذه الملامح ، ولكنه فشل تمامًا ، فغمغم فى توتُّر :

ـ إنها الأوامر أيها الرفيق الجنرال .

قال (أدهم) فى لهجة ، نجح فى صبغها بالغضب :

ـ أنا الذى يصدر هذه الأوامر أيها الرفيق الجندى .

ارتجف جسد الجندى ذعرًا ، واعتدل فى وقفته العسكرية ، وهو يقول فى احترام :

ـ عفوك أيها الرفيق الجنرال .

حَدَجَه (أدهم) بنظرة أخرى صارمة ، ثم عَبَر بَوَّابة السفارة المصرية بخطوات ثابتة ، مرفوع الرأس .. ولم يكد يفعل ، حتى تملَّكه انفعال شديد ، وأطلق من صدره زفرة قويَّة .. فها هوذا أخيرًا فوق أرض مصرية .

* * *

٩ ـ لا أيها الفشل ..

انخرطت (منى) فى بكاء شديد ، داخل الحجرة التى استضافها فيها السفير المصرى ، فى (موسكو) ، وهى تستعيد كل ذكرياتها مع (أدهم) ..

لم تنكر فى هذه اللحظة أنها تحبه ، فقد كانت تشعر بقلبها يتمزَّق لفقده ، وبمشاعرها تنهار من أجله ..

كانت دموعها تغطِّى وجهها ، عندما سمعت صوت طرقات هادئة على باب حجرتها ، فأسرعت تجفِّف دموعها ، وتقول فى صوت متحشرج ، من أثر البكاء :

ـ من الطَّارق ؟

سمعت صوت السفير يقول :

ـ هل تسمحين لى بدقيقة من وقتك يا آنستى ؟

قالت فى ضيق :

ـ بلا شك يا سيِّدى السفير .

دخل السفير إلى حجرتها فى هدوء ، وتطلَّع إلى عينيها المحمرَّتين ، وسألها فى إشفاق :

ــ أما زلت تبكينه يا آنستى ؟
عادت الدموع تنهمر من عينيها ، وهى تغمغم فى ألم :
ــ سأبكيه العمر كله يا سيِّدى .
سألها فى هدوء :
ــ كنت تحبِّينه إذن ؟!
أجابته فى حرارة :
ــ نعم .. ويا ليتنى أخبرته بذلك قبل أن أفقده .
تسلَّل إلى مسامعها ــ حينئذ ــ صوت هادئ حنون ، يقول :
ــ ما زالت أمامك فرصة مناسبة يا عزيزتى .
التفتت (منى) بمشاعرها كلها إلى مصدر الصوت ، وانطلقت من أعماق قلبها صرخة تمُوج بالدهشة والحنان ، وهى تهتف :
ــ (أدهم) ؟!
حاولت أن تلقى نفسها بين ذراعيه ، ولكن مشاعرها فاضت فى أعماقها ، فتفجَّرت من عينيها دموع غزيرة ، وهتفت فى فرح شديد :
ــ حمدًا لله .. حمدًا لله .
غافلت دمعة حنون عينى السفير ، وسالت على وجنته ، حينما احتوى (أدهم) كفَّىْ (منى) فى راحتيه ، وهمس فى حنان :

ــ لقد عدت من أجلك يا عزيزتى .
ثم أردف وهو يبتسم :
ــ ما رأيك أن أستغلَّ الفرصة ، وأطلب منك الزواج منِّى ؟
هتفت فى حرارة ، وهى تملأ عينيها بوجهه :
ــ إننى أوافق يا (أدهم) .. أوافق فى هذه المرَّة بلا تردُّد .
اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهمس :
ــ يا إلهى !!.. هذا هو انتصارى الحقيقى يا (منى)
مسح السفير دموعه ، وصبغ لهجته بالمرح وهو يقول :
ــ سأعد إجراءات عودتكما إلى القاهرة على الفور و ....
استدار إليه (أدهم) ، وقاطعه قائلًا :
ــ ليس بعد يا سيِّدى .
هتفت (منى) :
ــ ولكن يا (أدهم) ....
قاطعها (أدهم) مرَّة ثانية :
ــ لن نعود قبل أن نتم مهمتنا يا (منى) .. فأنا لا أميل للعمليات الفاشلة ، وسنحتفل بزواجنا فى القاهرة ، بعد أن نعود بهذا الوغد (أندريه) بإذن الله .

سأله السفير فى اهتمام :

ـــ أنت تنوى الاستمرار إذن ؟

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـــ نعم يا سيِّدى السفير .. سأواصل المهمة حتى النصر .

★ ★ ★

امتلأت ملامح (ياكوف) بالغضب ، وأخذ يدور فى أرجاء حجرته كاللَّيث الجريح ، حتى أن (إيفانوف) هتف به :

ـــ اهدأ أيها الرفيق الجنرال .. إنه لم يغادر (روسيا) بعد .

قال (ياكوف) فى حَنَق :

ـــ لن يغادرها إلَّا جثة هامدة .

ثم استدار إلى (إيفانوف) ، وصاح فى حِدَّة :

ـــ هل تعلم أنه أول شخص ينجح فى الفرار من إدارة مكافحة التجسُّس ؟

واستطرد فى انفعال شديد .

ـــ إنها أول مرَّة أشعر فيها بمرارة الفشل .. ولقد وعدت الرؤساء بإلقاء القبض عليه ، وإرساله إلى (سيبيريا) قبل أعياد الميلاد .

نظر إليه (إيفانوف) فى دهشة ، وغمغم :

ـــ لقد حصرت نفسك فى دائرة بالغة الضِّيق أيها الرفيق الجنرال .. فستبدأ احتفالات أعياد الميلاد ، بعد أقل من أربعين ساعة .

غمغم (ياكوف) فى صرامة :

ـــ إنها تكفينى .

همس (إيفانوف) فى حَيْرة :

ـــ ولكن كيف ؟

اعتدل (ياكوف) ، وشبَك أصابع كفَّيه خلف ظهره ، وصمت لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـــ سيقودنا إليه (أندريه) .

مال (إيفانوف) نحوه ، وسأله فى اهتمام :

ـــ كيف ؟

تطلَّع إليه (ياكوف) لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقال :

ـــ جرت العادة فى أعمال المخابرات خارج البلاد ، أن يتم إبلاغ السفير بنوع العملية ، حرصًا على التمويه السياسى فى حالة

فشلها ، ولا ريب أن المصريين يتبعون القاعدة نفسها ، وسنستغل هذا .

عاد (إيفانوف) يسأله فى إصرار :

ــ كيف ؟

تألَّقت عينا (ياكوف) ببريق عجيب ، وهو يقول :

ــ سترى أيها الرفيق .. سترى .

* * *



١٠ ــ العودة ..

اقتحم المقدم (حازم عبد الله) حجرة مدير المخابرات المصرية ، وهو يهتف فى فرح :

ــ لقد عاد (أدهم) يا سيِّدى ، ووصل إلى سفارتنا فى (موسكو) .

قفز مدير المخابرات من خلف مكتبه ، وهتف فى فرح مماثل :

ــ عاد ؟!.. ياله من رجل !! كنت أعلم أنه لن يستسلم بسهولة .

ثم أردف وهو يلوِّح بكفَّيه فى انفعال :

ــ إنه قادر على هزيمة القوات السوفييتية كلها وحده .

هتف المقدم (حازم) فى سعادة :

ــ إنه يطلب الاستمرار فى المهمة يا سيِّدى .

تلاشى فرح مدير المخابرات بغتة ، وعقد حاجبيه وهو يغمغم فى قلق :

ـ الاستمرار ؟!

غمغم (حازم) ، وقد خفت فرحه بدوره :

ـ هذا حقّه يا سيِّدى .

ظل مدير المخابرات صامتًا بعض الوقت ، ثم غمغم :

ـ خطأ يا (حازم) .

واستدار إلى (حازم) ، مردفًا فى حزم :

ـ أبرق إليه أن المهمة قد ألغيت يا (حازم) ، واطلب منه العودة إلى مصر بأسرع فرصة ممكنة .

اتسعت عينا (حازم) ، وغمغم فى حَيْرة :

ـ ولكن يا سيِّدى ..

قاطعه مدير المخابرات فى حزم :

ـ هذه الأمور تخضع لاعتبارات كثيرة أيها المقدِّم ، وبالنسبة لنا سيكون من المستحيل أن نستمر فى تحدِّى السلطات السوفيتية ، حرصًا على العلاقة بين دولتينا .

صمت لحظة ، ثم أردف فى هدوء :

ـ سنتخلَّى عن (العين الثالثة) ، ولنستعدْ أهم رجالنا .. (رجل المستحيل) .

* * *

عقد (أدهم) حاجبيه ، وغمغم فى غضب :

ـ أُلغيت المهمة ؟!.. لماذا ؟

مطَّ السفير شفتيه ، وقال :

ـ لست أدرى أيها العقيد .. إنها أوامر إدارة المخابرات العامة .

ظهر الغضب على وجه (أدهم) ، وقال فى ضيق :

ـ يمكننا أن نجرى محاولة أخيرة على الأقل .

هزَّ السفير رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال :

ـ مستحيل أيها العقيد .. لا يمكنك مخالفة الأوامر .

لوَّح (أدهم) بكفَّيه فى حنق ، وسمع (منى) تقول فى حنان :

ـ دَعْنا نعُد يا (أدهم) .

غمغم فى ضيق :

ـ إننى أكره الفشل يا (منى) .

أرادت أن تهدئ من حِدَّة غضبه ، فربَّتت على كتفه فى حنان ، فى نفس اللحظة التى وصل فيها السكرتير الأول للسفارة ، وقال للسفير فى قلق :

ـ هناك أمريكى ينتظر فى قاعة التأشيرات ، ويطلب مقابلة العقيد (أدهم صبرى) يا سيِّدى .

ظهرت الدهشة على وجهى السفير و (منى) ، على حين عقد (أدهم) حاجبيه ، وغمغم :

ــ ما اسمه ؟

أجابه سكرتير السفارة :

ــ قال إنه يدعى (أندريه جريج) .

تبادل (أدهم) و (منى) والسفير نظرات الدهشة ، ثم أسرع السفير يقول :

ــ أخبره بأننا لا نعرف من يدعى (أدهم صبرى) و ....

قاطعه (أدهم) فى اهتمام :

ــ مهلًا يا سيِّدى .. قابله فى مكتبك ، وأخبره أننى لست هنا ، واطلب منه أن يبلغك ما يريد .

هتف السفير :

ــ ولكن الأوامر ....

قاطعه (أدهم) :

ــ سأتحمَّل النتائج يا سيِّدى .

كانت لهجة (أدهم) حازمة ، حتى أن السفير صمت لحظة ، ثم قال :

ــ حسنًا أيها العقيد .. سأقابله .

* * *

تلفَّت (أندريه) حوله فى قلق ، وهو يعبُر حجرة السفير ، وصافحه بيد مرتجفة ، ثم قال :

ــ أين السيِّد (أدهم صبرى) ؟

أجابه السفير فى هدوء :

ــ إنه لا يقيم هنا ، ولكننى أعِدك بإبلاغه أيَّة رسالة تطلبها .

تردَّد (أندريه) لحظة ، ثم قال فى همس :

ــ أريد السفر إلى القاهرة .

ابتسم السفير ، وقال :

ــ هذا لا يحتاج إلى السيِّد (أدهم) بالذات .. يمكنك تقديم طلب و ....

قاطعه (أندريه) فى توتُّر :

ــ لا يمكننى السفر بالوسائل التقليدية يا سيِّدى .. إننى أطلب من السيِّد (أدهم) إخراجى من (روسيا) ، بأيَّة وسيلة يراها .

غمغم السفير فى سخرية :

ــ عملية تهريب إذن ؟.. هذا لا يدخل فى نطاق عمل السفارة يا سيِّد (أندريه) .

ظهر الألم فى وجه (أندريه) ، وقال فى همس :

ــ هل توجد أجهزة تصنُّت هنا يا سيادة السفير ؟

هزَّ السفير رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال :

ــ مطلقًا .. ولكن ربَّما تحمل أنت بعضها .

ظهر اليأس على وجه (أندريه) ، وقال :

ــ اسمع يا سيِّدى .. أبلغ السيِّد (أدهم) أننى قد خسرت الرهان ، وسأنتظره فى مكتبى فى السادسة من مساء اليوم .. أبلغه ذلك فقط .

ابتسم السفير فى هدوء ، وقال :

ــ سأفعل يا سيِّد (أندريه) .. كُنْ مطمئنًا .

غادر (أندريه) السفارة على عجل ، فأسرع (أدهم) و (منى) إلى مكتب السفير ، الذى قال :

ــ لقد تركت جهاز الاتصال الداخلى مفتوحًا ، ولا شك أنكما سمعتما الحوار كله .

قال (أدهم) :

ــ نعم يا سيِّدى .. ويبدو أن مهمتنا ستنجح ، بسبب جُبن هذا الرجل .

غمغمت (منى) فى قلق :

ــ ربَما كانت خدْعة يا (أدهم) .

قال فى حزم :

ــ سأخاطر يا عزيزتى (منى) .

سأله السفير ، وهو يعقد حاجبيه فى توتُّر :

ــ هل تعنى أنك ستذهب إليه فى الموعد ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ومطَّ شفتيه ، وهو يقول :

ــ بلا شك .. إنها فرصتنا الأخيرة لإنجاح المهمة .

ساد بينهم صمت قلق ، ثم عاد السفير يسأل (أدهم) :

ــ ولكن كيف ستخرجه من (روسيا) ؟. إنهم لن يسمحوا لكم بالسفر ولا ريب .

أخرج (أدهم) من جيبه خريطة للاتحاد السوفيتى ، فردها فوق مكتب السفير ، وقال :

ــ لقد أعدت مخابراتنا خُطَّة الهرب مسبَقًا .. فالبلد الوحيد الذى يمكن اللُجوء إليه ، هو (فنلندا) ؛ لذا فبعد استسلام (أندريه) لنا ، سنتَّخذ طريق (موسكو) ــ (لينينجراد) ، ومن هناك ننطلق صَوْبَ الحدود (الفنلندية) .

غمغم السفير فى قلق :

ــ هذا يبدو سهلًا على الورق أيها العقيد .. ولكن السوفيت يحيطون حدودهم بستار حديدى ، يستحيل اختراقه .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

ـــ هذا هو تخصُّصى يا سيِّدى .

غمغم السفير فى دهشة :

ـــ تخصُّصك ؟!

ابتسمت (منى) ، وهى تقول :

ـــ هذا صحيح .. إنه يُدْعَى (رجل المستحيل) .

* * *



١١ ـــ الفـــخ ..

جلس (ياكوف) على مقعد (أندريه) ، وخلف مكتبه ، وقد شبَّك أصابع كفَّيه أمام وجهه ، وأخذ يحرِّك المقعد فى هدوء ، يُمنةً ويُسرةً ، وهو يتطلَّع إلى (أندريه) بنظرات باردة ، أثارت خوفه ، فغمغم فى انكسار :

ـــ لقد نفَّذت أوامرك كلها أيها الرفيق (ياكوف) .

قال (ياكوف) فى هدوء :

ـــ المهم أن يحضر هذا الشيطان إلى هنا .

ازدرد (أندريه) لُعابه فى صعوبة ، وغمغم :

ـــ سيحضر أيها الرفيق الجنرال ، سيحضر فى موعده تمامًا .

ابتسم (ياكوف) ابتسامة باردة ، وقال :

ـــ سيكون هذا من حُسن حظك أيها الرفيق (أندريه) .. من حُسن حظك بالفعل .

* * *

سار (أدهم) إلى جوار (منى) صامتًا ، فى طريقهما إلى شركة الغلال الغربية ، وسألته (منى) فى هدوء :

ــ أما زلت غاضبًا ؟

قال فى ضيق :

ــ إنك لا تطيعين الأوامر أيَّتها النقيب .. لقد أمرتك بعدم مغادرة السفارة .

ضحكت وهى تتعلَّق بذراعه ، قائلةً :

ــ أنت نفسك تخالف الأوامر ، باستمرارك فى المهمة ، فكيف تطلب منِّى طاعتها ؟

ابتسم لدعابتها ، وغمغم :

ــ الأمر بالغ الخطورة يا (منى) ، وربما كان (أندريه) يخدعنا .

ابتسمت فى خجل ، وهى تقول :

ــ حينئذ سأكون إلى جوارك ، ولن أفقد زوج المستقبل فى سهولة .

ربَّت على كفِّها فى حنان ، وسألها :

ــ هل تحتفظين فى حقيبتك بالمسدس ، الذى أعارنا إيَّاه السفير ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ــ إننى أحتفظ به محشوًا ، ومستعدًا للعمل .

بدأت الثلوج تنهمر فى غزارة ، فحث (أدهم) الخُطَا وهو يقول :

ــ أسرعى يا عزيزتى .. إنها الخامسة وأربعون دقيقة .

تَبعَته فيما يشبه العَدْو ، وهى تقول :

ــ لقد وصلنا تقريبًا ، ونحن نحمل ملامح تنكُّريَّة جديدة و....

قاطعها بإشارة من يده ، وعقد حاجبيه وهو يتأمَّل مبنى الشركة بعين فاحصة ، فسألته (منى) فى صوت خافت :

ــ هل تتوقَّع شيئًا ؟

أجابها فى هدوء :

ــ المكان يبدو هادئًا يا (منى) ، ولكن انهمار الثلوج أخفى كل الآثار المحيطة بالشركة .

عادت تسأله :

ــ عمَّ تبحث بالضبط ؟

أجابها بنفس الهدوء :

ــ عن آثار عجلات سيارة عسكرية .

امتلأ صوتها بالقلق ، وهى تسأله هذه المرَّة :

ــ هل تتوقَّع فخًا ؟

ابتسم وهو يقول :

ـــ لابدَّ لى من أن أفعل يا (منى) .

مضت فترة وهما يراقبان المكان ، ثم قال (أدهم) فى حزم :

ـــ هيَّا بنا يا (منى) .

وسارا جنبًا إلى جنب ، وبخطوات واثقة إلى الشركة .

* * *

نهض (أندريه) من خلف مكتبه فى لهفة ، وأسرع يصافح (أدهم) فى قوة ، وهو يهتف :

ـــ شكرًا لقدومك يا سيِّد (أدهم) .. إننى أستسلم ، وأعلن خسارتى للرهان .

جذب (أدهم) كفّه من بين يدى (أندريه) ، وسأله فى برود :

ـــ متى تصبح مستعدًا للخروج من هنا ؟

أجابه (أندريه) فى لهفة :

ـــ وقتما تشاء يا سيِّد (أدهم) .

ثم أردف فى اهتمام :

ـــ وسأعاون المخابرات المصرية بقدر استطاعتى ، اعترافًا منِّى بالجميل .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ـــ سيكون ذلك على الرغم منك أيها الوغد .

هتف (أندريه) :

ـــ كما تشاء يا مستر (أدهم) .. كما تشاء .

ثم أشار إلى خريطة للاتحاد السوفيتى ، فوق حائط مكتبه ، وقال :

ـــ أى طريق سنتَّخذ فى هروبنا يا مستر (أدهم) ؟

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ـــ الطريق إلى (تركيا) .

ابتسمت (منى) بدورها ، وهى تتأمَّلهما من أمام النافذة الزجاجية ، فقد كانت تعلم أن طبيعة (أدهم) الكتوم ، قد جعلته يخدع (أندريه) فى وصف طريق الهروب .

لاحظ (أدهم) ابتسامتها ، فابتسم بدوره ، ولكن ابتسامته تلاشت فجأة .. فقد رأى ذُعرًا هائلًا يرتسم فجأة فى عينى (منى) ، وهى تحدِّق فى نقطة ما خلفه ، ثم رآها تنتزع مسدَّسها من حقيبتها ، وتطلق النار .

وفجأة .. انطلقت عدة أعيرة قاتلة من فوَّهة مدفع رشاش ، وقفز (أدهم) جانبًا ، ثم اتسعت عيناه فى ذُعر ،

فقد رأى الرصاصات القاتلة تخترق جسد (منى) ، ورآها تندفع إلى الخلف ، وتحطِّم زجاج النافذة ، ثم تهوى ، والدماء تنزف من جسدها الضئيل ، من الطابق الثانى للشركة ، فصرخ فى ألم :

ــ (منى) !!

ثم استدار فى غضب هائل ، يواجه اثنى عشر من الجنود السوفيت ، ورشاشاتهم ، وعلى رأسهم الرفيق (ياكوف) .





١٢ ــ الغضب الرهيب ..

لا أحد فى العالم كله ، يمكنه أن يصف كل هذا القدر من الغضب ، الذى عصف بنفس (أدهم) ، حينما رأى (منى) تهوِى أمامه من النافذة ..

لقد حوَّله الغضب إلى وحش كاسر ، وضاعف من قدراته الخارقة عشرات المرات ..

انقض على الجنود السوفيت كالصاعقة ، فحطَّم فكَّ أولهما بلكمة كالقنبلة ، وهشَّم أنف الثانى بأخرى ساحقة ، وشجَّ رأس الثالث بثالثة ماحقة ..

كانت أطرافه الأربعة تتحرَّك فى سرعة مذهلة ، وغضب رهيب ، وتساقط الجنود السوفيت حوله ، كذباب يقتله مبيد حشرى قوىّ ، على الرغم من كونه أعزل ، أمام مدافعهم الرشَّاشة القويَّة ..

ولكن الغضب الشديد أفقد (أدهم) أهم مميِّزاته .. الهدوء وحسن التدبير ..

وهوَى آخر الجنود بكعب مدفعه الرشاش على رأس (أدهم) ، ثم تراجع فى ذهول ، حينما استدار إليه (أدهم) ، وعيناه تتدفقان شررًا ، وعاجله بلكمة قويَّة حطَّمت أنفه ..

وهنا جمع (ياكوف) قوته كلها ، ووجَّه لكمة قوية إلى مؤخرة عنق (أدهم) ..

ترنَّح (أدهم) فى ألم ، ولكن إرادته الفولاذية دفعته إلى التحرُّك نحو النافذة المحطَّمة ، وأطل منها فى جزع ، ثم أطلق حشرجة لوعة ، عندما رأى (منى) ممدَّدة وسط الثلوج ، التى اصطبغ بعضها باللون الأحمر الدموى ..

وهنا هوَت على رأسه ضربة أخرى ، سقط بعدها فاقد الوعى ..

نهض بعض الجنود السوفيت فى ذهول ، والتقطوا مدافعهم الرشاشة ، على حين خرج (أندريه) من تحت مكتبه ، وسأل فى صوت مرتجف :

ـ هل قضيتم عليه أيها الرفيق (ياكوف) ؟

تطلَّع (ياكوف) إلى (أدهم) الفاقد الوعى ، وغمغم فى دهشة ، لم تفارقه بعد :

ـ لقد هزمناه ..

قالها وكأنه لا يصدِّق نفسه ، ثم التفت إلى رجاله ، وقال فى صرامة :

ـ كبِّلوه بأغلال حديدية ، واذهبوا به إلى الإدارة ، ولا تحُلُّوا قيوده حتى أفرغ منه .

أسرع الجنود يحملون جسد (أدهم) ، ويسرعون به إلى الخارج ، على حين قال (أندريه) :

ـ لقد عاونتكم أيها الرفيق (ياكوف) .. أليس كذلك ؟

نظر إليه (ياكوف) بعينين باردتين ، وقال :

ـ ما زلنا نحتاج إليك أيها الرفيق (أندريه) .

شحب وجه (أندريه) على حين أردف (ياكوف) فى لهجة تفُوح بالظفر :

ـ حتى ينتهى إغلاق ملف هذا الشيطان المصرى تمامًا .

* * *

لم يذُق مدير المخابرات طعم النوم دقيقة واحدة ، حتى صباح اليوم التالى .. وعندما دخل (حازم) إلى مكتبه ، كان يتناول قدح القهوة الخامس ، ولكنه رفع عينيه إليه فى اهتمام ، وسأله :

ـ هل من برقيات جديدة من (موسكو) يا (حازم) ؟

أومأ (حازم) برأسه فى بطء وحزن ، فهتف به مدير المخابرات فى عصبيَّة :

ـ ماذا تحمل هذه المرَّة ؟
قال (حازم) :
ـ لقد خالف (أدهم) الأوامر ، وذهب إلى (أندريه) .
امتقع وجه مدير المخابرات ، وقال فى صوت متحشرج :
ـ وماذا بعد ؟
حرَّك (حازم) رأسه فى حَيْرة ، وقال :
ـ لقد اختفى بعدئذ تمامًا يا سيِّدى .
غاص مدير المخابرات فى مقعده ، وغمغم فى شحوب :
ـ اختفى ؟!
ثم أشعل إحدى سجائره فى عصبيَّة ، وقال :
ـ أبرق إلى رجال مكتبنا السِّرِّىّ هناك يا (حازم) ، واطلب منهم جمع كل المعلومات الممكنة .. وبأقصى سرعة .
وأردف فى توتُّر زائد :
ـ إنه أخطر موقف تعرَّض له (ن ـ ١) حتى الآن .

* * *

زفر (إيڤانوف) فى ضيق ، وهو يدخل مكتب (ياكوف) ، الذى تابعه فى لهفة ، وأشعل (إيڤانوف) واحدة من سجائره ، ذات الرائحة النفَّاذة ، ونفث دُخانها فى حَنَق ، فسأله (ياكوف) ، الذى لم يعد يستطيع كتمان لهفته :

ـ هل حصلت على اعتراف كامل منه ؟
مطَّ (إيڤانوف) شفتيه ، وهزَّ رأسه نفيًا ، ثم قال فى حِدَّة :
ـ مطلقًا .. إنه أكثر من قابلت فى حياتى كلها صلابةً .. لقد عرضناه للصَّدمات الكهربائية ثلاث مرَّات ، وانتزعنا اثنين من أظفاره ، وتركنا جروحه تنزف ، بعد أن أغرقناها بالملح ، ولكنه ظلَّ يبتسم فى سخرية ، دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة .
ظهر الغضب على وجه (ياكوف) ، وهتف :
ـ أثخنوه بالجراح .. احرقوا أطرافه .. المهم أن أحصل على اعتراف كامل منه .
هزَّ (إيڤانوف) رأسه نفيًا ، وقال :
ـ لن تحصل منه على كلمة واحدة ، فهو طراز مختلف من الرجال .. طراز من فولاذ لا ينكسر .
زفر (ياكوف) ، وزمجر فى غضب ، ثم قال فى عصبيَّة :
ـ ناولنى إحدى سجائرك .
تطلَّع إليه (إيڤانوف) فى دهشة ، وقال :
ـ ولكنك تركت التدخين منذ ....
هتف (ياكوف) فى حنق :

ـــ سأعود إليه .

ناوله (إيڤانوف) السيجارة ، فأشعلها ، ونفث دخانها ، ثم قال :

ـــ سأذهب إليه بنفسى .

سأله (إيڤانوف) فى لامبالاة :

ـــ وماذا ستفعل معه ؟

صمت (ياكوف) لحظة ، ثم أجاب :

ـــ سأنتزع منه اعترافًا أو .. أو أقتله .

* * *



١٣ ـــ بين الأغـلال ..

طرق (قدرى) البدين ، مدير قسم التزييف ، باب مكتب مدير المخابرات المصرية .. ولم يكد يسمع صوت المدير يأذن له بالدخول ، حتى دفع البـاب ، وتطلَّع بعينين محمرَّتين إلى (حازم) ، ومدير المخابـرات ، وغمغم فى صوت شفَّ عن آلامه :

ـــ هل وصلت برقية جديدة ، بخصوص (أدهم) و (منى) يا سيِّدى ؟

أجابه مدير المخابرات فى صوت حزين :

ـــ نعم يا (قدرى) .

شعر (قدرى) أن قدميه تعجزان عن حمله ، وهو يسأله :

ـــ ماذا حدث ؟

أطرق مدير المخابرات برأسه فى حزن ، على حين أجاب (حازم) :

ـــ يقول شهود الموقف أن قتالًا عنيفًا قد دار فى مكتب

شركة الغلال الغربية ، وحدث تبادل إطلاق نيران ، سقطت بعده فتاة تنطبق ملامحها على (منى) ، من الطابق الثانى ، وجسدها يدمى إثر رصاصات مدفع رشّاش ، وبعدها غادر الجنود السوفيت الشركة ، وهم يحملون جسد رجل تنزف الدماء من رأسه فى غزارة ، وهو فاقد الوعى ، وكبّلوه بالأغلال ، ثم حملوا جثّة (منى) ، وانطلقوا إلى جهة مجهولة .

اتسعت عينا (قدرى) ، واغرورقتا بالدموع وهو يغمغم :

ـــ جثّتها ؟!!

اندفعت الدموع من عينيه فجأة ، واهتزّ جسده البدين فى قوة ، مع نحيبه ، وتطلّع إليه مدير المخابرات و (حازم) فى إشفاق ، ثم غمغم المدير فى حزن عميق :

ـــ كنا جميعًا نتوقّع هذه النهاية يا (قدرى) .. لقد كانت هذه آخر مهام (أدهم) و (منى) .. إنها نهاية (رجل المستحيل) .

* * *

رفع (أدهم) عينيه فى بطء ، يتطلع إلى (ياكوف) ، الذى وقف يتأمّله فى هدوء ، وهو يعقد كفّيه خلف ظهره ..

كانت حالة (أدهم) مؤسفة للغاية ، فقد بدت ثيابه رثّة ،

وتجمّدت على جبهته بعض الدماء ، من جرح عميق فى رأسه ، وبدا ظفراه المنزوعان ملتهبين داميين ، على نحو عنيف ، وكان مكبّلًا بالأغلال الحديدية ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يبتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـــ كيف حالك أيها الرفيق (ياكوف) ؟

ظلّ (ياكوف) يتأمّله لحظة فى تعجّب ، ثم أجابه فى هدوء :

ـــ هل تحاول التظاهر بالبطولة ، ياضابط المخابرات المصرية ؟

بدت ابتسامة (أدهم) شديدة السخرية ، وهو يقول :

ـــ اسمى (أشرف صابر) .. وأنا موظف فى وزارة الزراعة المصرية .

مطّ (ياكوف) شفتيه ، وقال :

ـــ لن يفيدك الإنكار أيها الرفيق (أدهم) .

ثم انحنى نحوه ، وأردف فى هدوء :

ـــ لن نسألك عن طبيعة مهمّتك فى أرضنا .. سيكفينا أن تعترف أنك ضابط مخابرات مصرى .

اكتفى (أدهم) بابتسامته الساخرة ، دون أن ينطق بكلمة ، فاعتدل (ياكوف) ، وقال :

ـ إنه مجرَّد إجراء شكلى أيها الرفيق (أدهم) .. فقد أدلى (أندريه) ، عميل (سكوربيون) باعتراف تفصيلى .

صمت (ياكوف) يمنح (أدهم) فرصة للإجابة ، ولكن (أدهم) استمر على صمته ، واستمرَّت ابتسامته الساخرة تزيِّن شفتيه ، فعاد (ياكوف) يقول :

ـ اعترافك سيجنِّبك مشقة عسيرة أيها الرفيق المصرى ، وربما اكتفت السلطات بإعادتك إلى دولتك و .....

قاطعته ابتسامة (أدهم) ، التى ازدادات سخرية ، فقال فى غضب :

ـ ما قولك أيها الرفيق (أدهم) ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ اذهب إلى الجحيم .

اعتدل (ياكوف) فى حِدَّة ، وشفَّت ملامحه عن غضبته العنيفة ، ولكن ملامحه لم تلبث أن استعادت هدوءها ، وهو يقول :

ـ لست أنا من سيذهب إلى الجحيم أيها المصرى .

ثم أشعل واحدة من سجائر (إيڤانوف) ، ذات الرائحة النفَّاذة ، وأردف :

ـ ولكن الجحيم الذى ستذهب إليها جحيم من الثلوج .. ثلوج تصل برودتها إلى خمسين درجة تحت الصفر .

لم تختف ابتسامة (أدهم) الساخرة لحظة واحدة ، طوال حديث (ياكوف) ، مما أورث هذا الأخير شعورًا بالحَنَق ، فألقى سيجارته بعيدًا ، وهتف فى غيظ :

ـ سأرسلك إلى سجن تحيط به القضبان الجليدية أيها المصرى ، سجن لم ينجح سجين واحد فى الفرار منه منذ إنشائه .

زفر فى غضب ، ثم أردف فى انفعال :.

ـ سأرسلك إلى (سيبيريا) .

* * *

وقف (أندريه) يرتجف أمام (ياكوف) ، الذى حَدَجه بنظرات صارمة ، بدت وكأنها تنفذ من جلد (أندريه) ، وتسلَّل إلى أعماقه ، فغمغم فى توتُّر :

ـ هل تسمح لى بالعودة إلى موطنى أيها الرفيق (ياكوف) ؟

ابتسم (ياكوف) ابتسامة صفراء ، أثارت رعب (أندريه) ، وهو يقول :

ـ هل سئمت بلادنا الجميلة أيها الرفيق (أندريه) ؟
هتف (أندريه) ، وهو يلوِّح بيده فى ذُعر :
ـ مطلقًا أيها الرفيق الجنرال .. مطلقًا .
اتسعت ابتسامة (ياكوف) ، وهو يقول فى هدوء :
ـ سنستضيفك فى بلادنا طويلًا أيها الرفيق .
هتف (أندريه) فى رعب :
ـ ماذا تقول أيها الرفيق الجنرال ؟
جاءه صوت (ياكوف) باردًا كالثلج ، وهو يقول فى صرامة :
ـ سترافق الشيطان المصرى إلى (سيبيريا) أيها الرفيق (أندريه) .
أطلق (أندريه) صرخة رعب ، وصاح :
ـ لا أيها الرفيق الجنرال .. أرجوك .. ليس (سيبيريا) .
بدا (ياكوف) أشبه بالشيطان وهو يقول :
ـ هذا جزاء كل من تسوّل له نفسه العبث ببلادنا أيها الرفيق .. ستقضى أنت والشيطان المصرى ما بقى من عمريكما وسط ثلوج (سيبيريا) ، التى لا ترحم أحدًا .

* * *

١٤ ـ ختام الجزء الأول ..

تحوَّلت مدينة (موسكو) إلى شعلة من الضوء ، عشيَّة عيد الميلاد ، وتدفَّقت أنهار من الفودكا بين السوفيت ، الذين قلَّما يجدون وقتًا للَّهو والعبث ، فاندفعوا يتصايحون ، ويلهون وسط الثلوج المنهمرة ، احتفالًا بمقدم عام جديد ..

كان الكلّ يلهو فى سعادة ، ماعدا رجلًا واحدًا ..

رجلًا جلس وحيدًا مكبَّلًا بأغلال حديدية ، داخل عربة مغلقة من عربات قطار نقل الفحم ، الذى ينهب الطريق إلى (سيبيريا) ..

رجلًا قامت على حراسته كتيبة كاملة ، من الحرَّاس المدججين بالسلاح ..

رجلًا كان يلقَّب بـ (رجل المستحيل) ..

كان جنود الحراسة يصوِّبون إليه مدافعهم الرشاشة طوال الوقت ..

ولكن الرجل لم يكن يفكر فى الفرار ..

كان مستسلمًا لمصيره ، وكأن مصرع زميلة كفاحه ، قد حطَّم فى أعماقه الرغبة فى الصراع ..

لم يعُد هو (أدهم صبرى) الذى نعرفه ..

لم يعُد ذلك الوسيم القوىّ ، الذى تنبض عروقه بالحماسة والثَّوْرة ..

بدا وكأنه رجل آخر .. نمت لحيته ، وفقدت عيناه بريقهما ..

رجل استسلم للقدر ..

القدر المظلم ، وسط سجن من الثلج .. وإلى الأبد .

* * *

[انتهى الجزء الأول]